وقعة أُحُـد
درسٌ عمليّ فى وجوب إطاعة القيادة العليا

لقد أصاب الجاهليين من اندحارهم ببدر شر عظيم ، فقد قتل سبعون من أشرافهم ، ووسموا بعار لا يمحوه إلا انتصار عظيم الشأن ينالونه من المسلمين ، ليستردوا به مكانتهم من قلوب العرب ، باعتبار أنهم القائمون على تمثيل الدين الذى يقدسونه ، وحماية البيت الذى يحجونه .

وكان أشد ما يحفزهم للتفكير فى حل جماعة المسلمين ، والاستبسال فى مقاتلتهم ، أنهم بقيامهم فى طريق تجارتهم إلى الشام ، يوصدون فى وجوههم بابا من الرزق ، لو ظل موصدا أصبح مُقامهم فى مكة من المحال ، واضطروا إلى أن يعيشوا معيشة البدو الرُّحَّل ، يممون منابت الكلأ حيث كان ، كما يفعل البدو الذين يعيشون على ما يقتنونه من الأنعام ، وهى حياة لم يألفوها ، بَلْهَ أنها تضطرهم لترك البيت وشأنه يتولى أمره من يستطيعه ، فيسرع إليه المسلمون ، ويكون فى ذلك القضاء الأخير عليهم وعلى ملتهم .

والذى جعلهم يلمسون هذا المصير الحتم ، أنهم لما أدركوا استحالة وصولهم إلى الشام من طريق يثرب ، عولوا على اتخاذ طريق آخر إليها من ناحية العراق ، فأرسلوا قافلة تجارية من ذلك الطريق يحميها فريق من أشداء قريش ، معهم سفيان ابن حرب ، وصفوان بن أمية ، وحُوَيْطب بن عبد العُزّى ، وهم من صناديد [1] قريش ، فبلغ خبرهم النبى ﷺ ، فأرسل لملاقاتهم كتيبة من مائة راكب تحت إمرة زيد بن حارثة ، وكان ذلك فى جمادى الآخرة من السنة الثانية للهجرة ، فالتقوا بالقافلة عند ماء اسمه القَرَدة بنجد ، فتقاتل الفريقان ، وانتصر المسلمون وغنموا التجارة ، وهرب حماتها قانعين من الغنيمة بالإياب . فأدرك المشركون أن لا منجاة من المسلمين إلا بإبادتهم ؛ فأسرعوا للعمل على ذلك قبل أن يخرج الأمر من يدهم . فلندعهم قليلا لنرى ماذا حدث فى جماعة المسلمين بعد وقعة بدر .

---

(١) الصِّنديد من الناس الشريف الشجاع ، الجمع صناديد .

الأعمال الإسلامية بعد وقعة بدر :

(**غزوة بنى قَيْنُقاع**) – لما حلّ النبى ﷺ بالمدينة ، كان بجوارها قوم من اليهود يقال لهم بنو قينقاع كانوا قد عقدوا بينهم وبين المسلمين معاهدة عدم اعتداء . ولكنهم لما آنسوا انتصار المسلمين ببدر ، أمضّهم هذا الأمر وأخذوا فى معاكسة المسلمين ، فاعتدوا على سيدة من نساء الأنصار . فدعا النبى رؤساءهم وحذرهم عاقبة البغى . فقالوا له : « يا محمد لا يغرنّك ما لقيت من قومك فإنهم لا علم لهم بالحرب ، ولو لقيتنا لتعلمن أنّا نحن الناس » . فأمره الله أن يبلغهم قوله تعالى : ﴿ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ . قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِى فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا (يريد المسلمين وجيش المشركين ببدر) ، فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِى سَبِيلِ اللهِ ، وَأُخْرَى كَافِرَةٌ ، يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْىَ الْعَيْنِ ، وَاللهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الأَبْصَارِ ﴾ [1] . فلم يرفعوا بهذا القول رأسا ومضوا فى بغيهم . فحاصرهم النبى ﷺ ، فأدركهم الرعب ، فطلبوا الخروج بأنفسهم دون أموالهم . فقبل رسول الله طلبهم ، وجَلَوا قاصدين الشام .

(**غزوة السَّوِيق**) – لما بلغ أبا سفيان بن حرب خبر قتل ابنه فى معركة بدر ، هاج هائجهُ وأقسم أن لا يمس رأسه ماء حتى يغزو محمدا ، وسوّلت له حمية الجاهلية أن يخرج فى مائتين من رجاله ، وقصد أن يقابل رئيس بنى النضير من اليهود ليستنصر بقومه ، فلم يسمح بمقابلته ، فأرسل بعض رجاله فحرقوا نخلا بجوار المدينة ، وصادفوا أحد الأنصار فقتلوه . فخرج إليه النبى ﷺ فى مائتين من المسلمين ، فلما بلغه ذلك أدركه الرعب ، فهرب هو ورجاله ، وأخذوا يخففون أثقالهم بإلقاء ما لديهم من الدقيق المتخذ من الحنطة والشعير ، ويسمونه السويق . فسميت هذه الغزوة لهذا السبب بغزوة السويق .

(**زواج على بن أبى طالب بفاطمة الزهراء**) – فى هذه السنة وهى الثانية ، تزوج علىّ ، وعمره إحدى وعشرون سنة ، بفاطمة بنت رسول الله ﷺ ، وسنها

---

(١) سورة آل عمران ، الآيتان (١٢ – ١٣) .

خمس عشرة سنة . وفيها دخل رسول الله بعائشة بنت أبى بكر أم المؤمنين .

(**غزوة بنى غَطَفان**) – دخلت السنة الثالثة بعد الهجرة ، وفى ربيع الأول منها أجمع بنو ثَعْلبة ومحارب من غطفان على الإغارة على المدينة ، فخرج إليهم رسول الله فى أربعمائة وخمسين رجلا . فلقيه رجل منهم يقال له دُعْثور ، فلما وعى منه الإسلام ، عاد إلى قومه وحضهم على الدخول فيه ، فأسلموا جميعا .

(**غزوة بُحْران**) – نمى إلى النبى ﷺ أن جمعا من بنى سُلَيم يريدون الإغارة على المدينة ، فخرج إليهم فى ثلاثمائة من أصحابه ، فهرب المغيرون .

(**سد طريق العراق على تجارة قريش**) – لما لم يطق المشركون من أهل مكة صبرا على انقطاع تجارتهم ، حاولوا الاتصال بالشام من طريق العراق تحت قيادة أبى سفيان بن حرب وغيره من صناديدهم ، فأرسل النبى ﷺ كتيبة من جنوده فاستولوا على قافلة التجارة وهرب حماتها .

(**غزوة أحد**) :

عود على بدء – درس عملى فى وجوب إطاعة القيادة العليا :

قلنا لما آنس القرشيون أن طرق التجارة استدت فى وجوههم ، لم يبق لهم إلا أحد أمرين : إما الاستماتة فى التغلب على المسلمين ، أو الهجرة من مدينتهم والتفرق فى الأرض لطلب الرزق ، فآثروا الوجه الأول ، واجتمع نحو ثلاثة آلاف رجل منهم تحت قيادة أبى سفيان بن حرب ، ومعهم الأحابيش حلفاؤهم [1] ، وأبو عامر الراهب ومعه عدد ممن على شاكلته . وخرج معهم جماعات من أعراب كنانة وتهامة ، وساروا حتى نزلوا مقابل المدينة بذى الحليفة .

فلما بلغ النبى ﷺ خبرهم ، استشار أصحابه فى البقاء بالمدينة والدفاع فيها ، أو فى الخروج إليهم ؛ فرأى أكثرهم أن الخروج إليهم أمثل ؛ فسار سحرا على رأس

---

(١) الأحابيش : قوم من قريش وكنانة وخزيمة وخزاعة اجتمعوا فى الحبشى (بضم فسكون ،فكسر) وهو جبل بأسفل مكة ، وتحالفوا على التناصر والتعاون .

ألف رجل حتى إذا بلغ (الشَّوْط) ، وهو بستان بين أحد والمدينة ، نكص عبد الله ابن أُبَيّ شيخ المنافقين على عقبيه ، ونكص معه ثلاثمائة ممن هم على شاكلته .

فلما رأت طائفتان من المؤمنين ممن كانوا قريبى عهد الإسلام تخاذُلَ هذه الجماعة ، تولاهما الخَوَر ، وكادتا أن تنحوا نحوهما ، فعصمهما الله من ذلك . وفى ذلك نزل قوله تعالى : ﴿ إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلاَ وَاللهُ وَلِيُّهُمَا ، وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (١).

وتحدث بعض المسلمين فى وجوب قتال المنخذلين ، فأنزل الله فى ذلك قوله تعالى : ﴿ فَمَا لَكُمْ فِى الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ (أى ما لكم افترقتم فى أمرهم إلى رأيين) ، وَاللهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا ، أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللهُ ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً ﴾ (٢) فتركوهم .

ثم ساروا حتى نزلوا الشِّعْب من أُحُد ، وهو جبل فى الشمال الشرق من المدينة ، جاعلين ظهورهم إلى الجبل ووجوههم إلى المدينة ، ونزل المشركون ببطن الوادى ، وكان على ميمنتهم خالد بن الوليد (وكان لم يسلم بعد) ، وعلى ميسرتهم عِكْرمة بن أبى جهل ، وعلى المشاة صفوان بن أمية . واستحضر الرماة وكان عددهم خمسين فجعلهم خلف الجيش على ظهر الجبل ، وأمرهم أن لا يبرحوا مكانهم سواء أكان المسلمون منتصرين أم منهزمين . فابتدأ القتال بالمبارزات الفردية على عادة العرب ، ثم حملت خيّالة المشركين ثلاث مرات وفى كل مرة يرتدون على أعقابهم ، بسبب ما يصيبهم من النبال ، ثم التقت المشاة وحمى الوطيس ، وكان نساء المشركين ينشدن الأناشيد يحمّسن الرجال ، فلم تجدهم حماستهم نفعا ، لأن المسلمين على قلة عددهم صبروا لهم صبر الكرام ، وما هى إلا ساعة حتى شعر المشركون بالخور وولوا الأدبار ، ونساؤهم يبكين ويولولن ، وتبعهم المسلمون يجمعون الغنائم والأسلاب .

---

(١) سورة آل عمران ، الآية (١٢٢) .

(٢) سورة النساء ، الآية (٨٨) .

فلما رأى الرماة الذين وضعهم النبى ﷺ لحماية ظهور المسلمين ما آلت إليه الحال من النصر ، مالوا إلى النزول ، فقال لهم رئيسهم عبد الله بن جبير : إن فى ذلك مخالفة لأمر الرسول ؛ فعصوه ونزل أكثرهم ، وبقى هو وقليل من المثبتين . فلما آنس خالد بن الوليد زوال هذه العقبة أسرع إلى الذين بقوا فوق الجبل فقتلهم جميعا وأتى المسلمين من ورائهم ، فلما رأوا ذلك اختل نظامهم ودهشوا حتى صار بعضهم يضرب بعضا ؛ وقتل رجل حامل لواء المسلمين وأشاع أن محمدا قتل ، فتسرب الفشل عند ذاك إلى قلوب المؤمنين ، وانقسموا إلى طائفتين .

قالت أولاهما : إذا كان محمد قد قتل فعلام نقاتل ؟ فلنرجع إلى أهلنا .

وقالت ثانيتهما : إذا كان محمد قد قتل فلا خير بعده فلنقاتل فى سبيل ديننا حتى نقتل .

أما النبى ﷺ فقد ثبت مكانه ، وكان بين يديه أبو طلحة الأنصارى ، وكان مناضلا مسدد الرماية ، فنثر كنانته وهو يقول : وجهى لوجهك فداء ! وكان كلما مر برسول الله رجل قال له انثر كنانتك لأبى طلحة . وعاونه سعد بن أبى وقاص وسهل بن حنيف ، وقام أمام النبى أبو دُجانة سِماك بن خَرَشة جاعلا نفسه مِتْراساً له وهو مُنْحَنٍ عليه ، فكان نبل المشركين يقع على ظهره ، وكان يدفع الناس عنه زيادة بن الحارث حتى وقع صريعا دونه . وقصد رسول الله أبىّ بن خلف من المشركين يريد قتله ، فلما قرب منه ضربه ضربة كانت سبب هلاكه .

وكان أبو عامر الراهب قد حفر حُفَراً وغطاها ليقع فيها المسلمون ، فوقع النبى فى واحدة منها فأغمى عليه ، وخدشت ركبتاه ، فأخذ علىّ بيده ، ورفعه طلحة بن عبيد الله حتى استوى قائما ، فرماه عتبة بن أبى وقاص بحجر كسر رَبَاعِيته (وهى السن التى بين الثنية والناب) ، فهجم على عتبة حاطب بن أبى بَلْتَعة فقتله ؛ وتصدى له عبد الله بن شهاب من المشركين فشجّ وجهه ؛ وجرحت وجنتاه بسبب دخول حَلْقتى المِغْفَر فيهما من ضربة وجهها إليه ابن قَمِئَة من الجاهليين . وجاء أبو عبيدة فعالجهما ليخرجهما فكسرت بسبب ذلك ثنيتاه . وسار النبى وبين يديه بعض أصحابه يريد الشِّعب ، فلما انتهى إليه أقبلت إليه ابنته فاطمة وأخذت تغسل وجهه وتضمده .

قتل فى هذه الوقعة من المسلمين نيّف وسبعون ، منهم عم النبى حمزة . وكان أكثرهم جراحة المنافحون عن النبى ﷺ ، فأصاب طلحة أكثر من سبعين جرحا ، وشلت يده .

ومثّل المشركون بقتلى المسلمين ، حتى إن هندا زوج أبى سفيان شقت بطن حمزة وأخرجت كبده لتأكلها فلم تستطع ازدراد شيء منها بعد أن لاكت قطعة منها بين أسنانها .

ثم إن أبا سفيان قائد جيش المشركين صعد الجبل ونادى بأعلى صوته : نعمت فَعَالِ ، يومٌ بيوم بدر ، وموعدكم بدر العامَ المقبل . ثم قال : إنكم ستجدون فى قتلاكم مثلة لم آمر بها ولم تسؤنى .

ثم قفل المشركون راجعين إلى مكة .

ما يجب أن يستخرج من العبر من هذه الوقعة :

إن هذه الوقعة فى عرف رجال الحرب تعتبر أنها أفضت إلى هزيمة المسلمين ، ولكن المتأمل فيها لا يجدها تشبه الهزائم فى شيء . فإن المعهود فى الهزائم أنها تقتضى أن يولى المهزوم الأدبار ، وأن يتعقبه خصمه الظافر يقتل بعض جنوده ويأسر بعضا آخر ، ويستولى على جميع معسكره . فإذا كان يريد أن يفرغ من خصمه نهائيا ، كما كانت نية المشركين من قبل ، تبع العدو المنتصر المنهزمين إلى مقر تجمعهم ، سواء أكان ذلك معقلا أم مدينة ، واستولى عليه وأقام فيه حامية ليمنع عودهم إلى معاكسته .

ولكن الذى آنسناه عقب هذه الوقعة ، أن المشركين بعد أن انتصروا على المسلمين لم يتعقبوا فلولهم ، ولم يحتلوا مدينتهم ، بل لم يعملوا على أسر النبى وهو رأس هذه الحركة القائمة ضدهم ، وعاد من ميدان المعركة على مهل ، ثم لم يعجله شيء عن إصلاح شأنه وغسل جراحه . ومن أغرب ما يُلاحظ أن قائد المشركين صعد الجبل وخاطب المسلمين وهم على مسمع منه ، وواعدهم العام المقبل ، كأن الفريقين كانوا فى مباراة رياضية ، لا فى وقعة حربية ! ولم يعهد مثل هذا قط فى تاريخ الحروب وخاصة القديمة ، إذ كانت إلى التفانى الحيوانى أقرب منها إلى التنازع الإنسانى .

ولا يمكن أن يقال إن جيش المشركين كان خلوا من وسائل المطاردة ، فقد كان فيهم مائتا خيال تحت إمرة أمهر قادة الحرب فى الجاهلية ، خالد بن الوليد ، وقد كان فى وسعه على الأقل أن يحيط النبى ﷺ بخيالته فيمنعه الرجوع إلى المدينة . وقد ثبت أن النبى لم يعد من ساحة القتال فى أكثر من بضعة عشر رجلا وأربع عشرة امرأة ! فأى عون من الله لنبيه أظهر من هذا فى مثل هذه المحنة ؟

وقد تبين المشركون بعد أن بعدوا عن المدينة ، أنهم ارتكبوا خطأ فاحشا فى ترك المسلمين وشأنهم ، إذ قال بعضهم لبعض : أى شىء فعلتم ، لا محمدا قتلتم ، ولا الكواعب أردفتم ، بئس ما صنعتم ! ارجعوا .

فبلغ النبى ﷺ ذلك ، فخرج إليهم فى عسكره ولحق بهم . فلما رأى المشركون ذلك ، وقد ذاقوا استبسالهم فى الحرب ، خشوا أن تدور الدائرة عليهم ، فانصرفوا .

لا جرم أن هذا من أعجب ما يحفظه تاريخ التنازع بين الحق والباطل . وقد رأينا أن سبب هذه الهزيمة كان عصيان الرماة للأمر الذى صدر إليهم من رسول الله ﷺ . وقد ذكر الله ذلك فى كتابه فقال : ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ (أى تقتلونهم) ، حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِى الْأَمْرِ ، وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ (جواب الشرط محذوف هنا تقديره : عاقبكم بالهزيمة) ، مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ، ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ، وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ ، وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) (*) .

★ ★ ★

(١) سورة آل عمران ، الآية (١٥٢) .

(*) مجلة الأزهر ، المجلد الحادى عشر ، الجزء التاسع ، رمضان سنة ١٣٥٩ هـ .

مُناوشات غير خطيرة
قبل المعركة الفاصلة ؛ وقعة الأحزاب

سريّة أبى سلمة :

أهلت السنة الرابعة فبلغ النبى ﷺ أن طليحة وسلمة ابنىْ خويلد الأسديين ، يؤلّبان قومهما لحربه ، فاستدعى رسول الله أحد أصحابه أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومى ، وأمره أن يسير حتى يطأ أرض بنى أسد بن خزيمة ويغير عليهم ، وأمر أن تسير معه كتيبة ، فسار فى المحرم حتى بلغ جبلا لهؤلاء القوم يقال له قَطَن ، فشن عليهم الغارة فهربوا من بيوتهم ، واستاق أبو سلمة ما صادفه من إبل وغنم .

سرية عاصم بن ثابت :

فى صفر من السنة الرابعة قدم على رسول الله ﷺ رجال من بنى عَضَل والقَارَة ، وهما قبيلتان من بنى الهُون ، وطلبوا إليه أن يرسل معهم من يفقه قومهم فى الدين ، فأرسل معهم ستة من أصحابه تحت إمرة عاصم بن ثابت . وكان هؤلاء الرجال غير صادقين فى دعواهم ، بل مأجورين لبنى لحِيْان الذين قتل المسلمون منهم أحد رجالهم ، سفيان بن خالد ، فأرادوا أن يرزءوا المسلمين بقتل رجال منهم أخذا بالثأر .

فلما بلغت السرية الرَّجيع ، وهى ماء بين مكة والمدينة ، أحسّوا بالغدر ، وخرج نحو مائتين من بنى هُذَيل فى طلبهم ، فاضطر رجال السرية للجوء إلى جبل هناك والاستعداد للمقاومة . فطلب إليهم بنو هذيل أن ينزلوا ولهم الأمان ، فاغتر بعهدهم ثلاثة رجال ، فلما صاروا فى أيديهم قتلوا أحدهم لمقاومته لهم بعد أن شعر منهم بالغدر ، وباعوا الاثنين بمكة لمن يريد أن يثأر لقتلاه من أهل مكة ، وهنالك قتلا .

سرية بئر مَعُونة :

فى صفر من السنة الرابعة وفد على النبى ﷺ أبو عامر بن مالك من صناديد

بنى عامر ، وكان يدعى لبطولته مُلاعب الأسنّة ، فدعاه رسول الله للإسلام ، فلم يذعن ولكنه لم يبعد . وقال للنبى : إنى أرى أمرك هذا حسنا ، فلو بعثت معى رجالا إلى أهل نجد فإنى أتوقع أن يستجيبوا لهم .

فقال له النبى ﷺ : إنى أخشى عليهم أهل نجد .

فقال ملاعب الأسنة : أنا لهم جارٌ .

فأرسل رسول الله لهم المنذر بن عمرو فى سبعين من أصحابه اشتهروا بالإكثار من حفظ القرآن حتى أطلق الناس عليهم لقب القُرّاء ، فساروا جميعا حتى نزلوا بئر معونة ، ومنها بعثوا أحدهم ، حَرَام بن مِلْحان ، بكتابٍ إلى عامر بن الطُّفَيْل سيد بنى عامر . فلما وصل إليه لم يلتفت إلى الكتاب ، ولكنه ثار على مقدِّمه وقتله ، ثم استثار قومه على بقية إخوانه ، فلم يقبل بنو عامر أن يخفروا ذمة ملاعب الأسنّة ، فاستصرخ عامر بن الطفيل عليهم بنى رَعْل وذَكْوان وعُصَيَّة ، وهى قبائل من بنى سليم ، فأجابوه وذهبوا معه حتى التقوا بأصحاب رسول الله فقاتلوهم قتالا عنيفا حتى أتوا عليهم جميعا إلا رجلين ، أحدهما كعب بن زيد وقع بين القتلى حتى ظن أنه منهم فنجا ، وعمرو بن أمية وكان على سرح للقوم ، أى مع حيوانات سائمة لهم ، فخلص من القتل .

فلما بلغ النبى ﷺ أمر هذه المجزرة الشنيعة حزن حزناً شديداً .

غزوة بنى النضير :

بنو النَّضير يهود كبنى قينقاع الذين قلبوا ظهر المجنّ للمسلمين فاضطروهم للجلاء عن حصونهم والهجرة إلى الشام . وهؤلاء جروا على سنة سابقيهم فحدثتهم أنفسهم أن يغتالوا النبى ﷺ . وذلك أنه بينما كان مع بعض صحابته فى ديار بنى النضير ، تآمر رجال منهم إلى إلقاء صخرة عليه من مكان عال ، رغما عما كان بينه وبين هؤلاء القوم من عهد عدم الاعتداء ، فلما تبين رسول الله قصدهم رجع إلى المدينة وأرسل محمد بن مَسْلَمة يكلفهم الجلاء عن بلاد العرب إلى حيث يشاءون .

فتهيأ القوم للرحيل علما منهم أنهم لا يقوون على حرب المسلمين ، فارسل إليهم منافقو المدينة من يخبرهم بأنهم يساعدونهم لو وقع عليهم عدوان ، وأنهم وإياهم متكافلون فى الحياة ، وقد حكى القرآن الكريم ما قالوه فى قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً ، وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ ، وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ ، وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ ، وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ . لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِنَ اللهِ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَفْقَهُونَ . لاَ يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلاَّ فِى قُرىً مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ ، بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ، تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ . كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيباً ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ ، فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىءٌ مِنْكَ إِنِّى أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ . فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِى النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا ، وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴾ (١) .

ولكن بنى النضير اطمأنوا إلى هذا الوعد ، وتلكأوا عن الجلاء ، فأمر النبى ﷺ بالتعبئة ، فلما اجتمع العدد المطلوب خرج بهم . فلما بلغ بنى النضير خبر خروجه دخلوا إلى حصونهم وامتنعوا فيها ، منتظرين ما يقوم به المنافقون الذين غرروا بهم تحت إمرة زعيمهم عبد الله بن أُبَىّ ، فلم يمدوا إليهم يدا بمساعدة كما لم يفعل مع بنى قينقاع من قبلهم .

فطلبوا إلى رسول الله أن يقوموا بما تعهدوا به من الجلاء ، آخذين معهم ما تحمله الإبل من الأموال إلا آلة الحرب . فقبل ما اقترحوه وخرجوا . فمنهم من نزلوا بخيبر ، ومنهم من هاجروا إلى الشام ، وأسلم منهم اثنان .

غزوة ذات الرِّقاع :

بلغ النبى ﷺ أن قبيلتين من قبائل نجد ، وهما بنو مُحارب وبنو ثَعْلبة ، تتهيآن لحربه . فجرد من صحابته سبعمائة مقاتل وخرج بهم لملاقاة عدوهم . وما زالوا

---

(١) سورة الحشر ، الآيات (١١ - ١٧) .

سائرين حتى وصلوا ديار القوم ، فلم يجدوا بها رجالا . ذلك أنهم لما بلغهم قدوم جيش المسلمين لاذوا بقنن الجبال ، ثم تشجع بعضهم ونزلوا للقتال . فلما اقترب الجمعان اعتراهم الرعب وولوا الأدبار .

غزوة بدر التى أوعد بها أبو سفيان :

قلنا عندما انتهينا من إيراد تفصيلات وقعة أُحُد أن أبا سفيان واعد المسلمين اللقاء فى بدر من العام المقبل ، وقبل النبى ﷺ تحديه . ولكن أبا سفيان لم يستطع أن يوفى بوعده ، وخشى أن يُتهم بالنكول فعمد إلى الحيلة . فكان ما حاكه منها أنه استأجر رجلا يقال له نُعَيم بن مسعود الأشجعى ليأتى المدينة ويرجف بما جمعه أبو سفيان من الجنود الكثيرة ، ليكسر من حدة المسلمين ، وينال من قواهم النفسية . فلم يبالوا بأقوال نعيم ، وخرجوا ألفا وخمسمائة تحت قيادة النبى ﷺ ، وما زالوا يسيرون حتى أتوا بدرا فلم يجدوا بها أحدا . لأن أبا سفيان بعد أن وصل بمن معه إلى بدر وأرسل الرجل الذى استأجره للإرجاف ، ظن أن إرجافه سيفيد الفائدة المرجوة منه . فقال لقومه إن هذا عام مجدب ، ولا يصلح للقتال غير عام مُعْشب ، هلمّوا للرجوع . وكان قد خرج بهم على هذه النية ليرى الناس أن قريشا وفت بتحديها وأن المسلمين هم الذين نكصوا على أعقابهم خوفا منهم .

أما المسلمون فلما قدموا بدرا أقاموا بها يتجرون فى سوقها الذى كان ينعقد مرة فى شعبان من كل سنة ، فأصابوا خيرا كثيرا ، وسجلوا على أعدائهم الخذلان .

وقد حكى الله هذه الحادثة فى الكتاب الكريم فقال تعالى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ . أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا (فى وقعة أحد) ، قُلْتُمْ : أَنَّى هَذَا ؟ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ، إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . وَمَآ أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللهِ ، وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا ، وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ أَوِ ادْفَعُوا ، قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ ، هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ ، يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ، وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ . الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا

قُتِلُوا ، قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ . وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا ، بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ . فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ ، وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللهِ وَفَضْلٍ ، وَأَنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ، الَّذِينَ اسْتَجَابُوا للهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ ، لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ . الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ ، فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ . فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ ، وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللهِ ، وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ . إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ . وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللهَ شَيْئًا ، يُرِيدُ اللهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللهَ شَيْئًا ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنفُسِهِمْ ، إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا ، وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ . مَّا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ، وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ ، وَلَكِنَّ اللهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ ، فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ ، وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ (١) .

غزوة دُومَة الجندل :

كانت هذه الغزوة فى ربيع الأول من العام الخامس للهجرة . وسببها أن النبى ﷺ بلغه أن الأعراب اجتمعوا بدومة الجندل يقطعون الطريق على من مر بهم ، وأنهم يريدون الدنوّ من المدينة وكان بينهم وبينها خمس عشرة ليلة . فأمر رسول الله بتعبئة ألف مقاتل من جنوده وخرج بهم لفضّ جماعة أولئك المفسدين . فلما قرب منهم وبلغهم الخبر تفرقوا ، فاستاق المسلمون ما شيتهم ورعاءهم . وبث النبى ﷺ كتائبه إلى كل وجه فلم يجد منهم أحدا ، وكفى الله المؤمنين القتال .

---

(١) سورة آل عمران ، الآيات (١٦٤ - ١٧٩) .

غزوة بنى المصطلق :

بنو المُصْطَلق بطن من خُزاعة ، وتسمى هذه الغزوة غزوة المُرَيْسِيع أيضا ، وهو ماء لتلك القبيلة .

سبب هذه الغزوة أنه بلغ النبى ﷺ أن الحارث بن ضِرَار سيد بنى المصطلق يحشد الجنود لمحاربته ، فاستعد للقائه وندب الناس للقتال ، فلبّاه عدد كبير ، وكان منهم جمهور غفير من المنافقين ، خرجوا طلبا للغنيمة . فلما نمى خبر قدوم النبى بجيشه إلى ديار بنى المصطلق أدركهم الرعب حتى تخاذل رجال منهم وتركوا معسكرهم . ولما وصل جيش المسلمين إليه ترامى الفريقان بالنبل ، ثم هجم المسلمون عليهم وقتلوا منهم عشرة وأسروا سائرهم حتى نساءهم وذريتهم ، واستولوا على ماشيتهم وكانت ألفى بعير وخمسة آلاف شاة .

وكان بين الأسرى برّة بنت الحارث سيد بنى المصطلق ، فتزوّجها النبى ﷺ ، فلما رأى أصحابه أن بنى المصطلق صاروا أصهارا لرسول الله ردّوا ما أخذوه من أموالهم من الغنائم ، وأطلقوا الأسرى أيضا ، لأنهم رأوا أنه لا يصح أن يؤسر من يمت إلى نبيهم بسبب . فقالت عائشة رضى الله عنها : « ما أعلم امرأة كانت أعظم بركة على قومها من جُوَيْرِية » ، تريد برة بنت الحارث وقد غيّر النبى ﷺ اسمها . وقيل إن جويرية هى التى طلبت إلى النبى ليلة زفافها إليه أن يطلق سراح الأسرى من قومها ، فأطلقهم . فكان أثر هذه المكرمة عظيما فى بنى المصطلق إلى حد أن حملهم على الإسلام على بكرة أبيهم .

نار فتنة ما شبت حتى خمدت :

شبت نار فتنة بين المهاجرين من أصحاب النبى وبين أهل المدينة ، فلولا حكمة الرسول ، ورسوخ الإيمان فى قلوب المسلمين ، لأدت إلى انفصام وحدة المسلمين .

ذلك أن عبد الله بن أُبى زعيم المنافقين شهد مع شيعته هذه الغزوة طمعا فى غنائمها . واتفق أن أجيراً لعمر بن الخطاب خاصم حليفا للخزرج ، فضرب أولهما الثانى وأسال دمه . فصاح الحليف (يا لَلخزرج) وصاح الأجير (يا لَلمهاجرين) ، فأقبل إليهما رجال من الفريقين كادوا يقتتلون ، لولا أن خرج إليهم رسول الله قائلا :

ما بال دعوى الجاهلية ؟ فأخبره بالأمر . فقال : دعوا هذه الكلمة فإنهما مُنْتِنَةَ ، ثم حقق القضية فلم يجد للمضروب حقا ، فوقف الأمر عند هذا الحد .

ولكن شيخ المنافقين أراد أن لا تفوته هذه الفرصة . فكلم بنى الخرزج قائلا : « ما رأيت كاليوم مذلة ، أوَ قد فعلوها ، نافرونا فى ديارنا ، والله ما نحن والمهاجرون إلا كما قال الأول : سمِّن كلبك يأكلك . أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجن الأعز منها الأذل . ثم التفت إلى من معه وقال : هذا ما فعلتم بأنفسكم ، أحللتموهم بلادكم ، وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتم عنهم أيديكم ، لتحولوا إلى غير دياركم ، ثم لم ترضوا بما فعلتم ، حتى جعلتم أنفسكم غرضا للمنايا دون محمد ، فأيتمتم أولادكم ، وقللتم وكثروا ، فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من عنده » .

فلما بلغ هذا الكلام النبى ﷺ غضب وتغير وجهه ، فقال عمر : مرنى أو مر غيرى بقتله يا رسول الله ، فلم يقبل منه هذا الرأى ، وأمر جيشه بالعود إلى المدينة ، وبينما هم ببعض الطريق نزلت سورة المنافقين وفيها القضاء عليهم ، وهى :

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ ، وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ، وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ، اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللهِ ، إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ . وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ، كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ، يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ، هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ، قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ . سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ، لَن يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ، إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ . هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنفَضُّوا ، وَللهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ . يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ ، لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ، وَللهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ، وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ . يَأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللهِ ، وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ . وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ ، فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِى

إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ . وَلَن يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ، وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (١) .

لا يجوز لنا أن نختتم هذه المقالة حتى ننبه القارئين إلى العلو الخلقى ، والسمو الفكرى اللذين ظهر عليهما النبى ﷺ حيال إرجاف شيخ المنافقين عبد الله بن أبى . فقد كان فى استطاعته قتله وقتل كل من يلف لفّه من منافقى المدينة ، فقد كان الحاكم المطلق فى المدينة وضواحيها . وقد اضطر بعض المشركين ومنهم عبد الله بن أبى المذكور لإظهار الإسلام نفاقا ، والعمل سرا على حل جماعة المسلمين . ولو كان النبى قتل زعيم المنافقين لقال الناس إن محمدا استخدم القوة الغاشمة فى بث دعوته ، فلو تركها عرضة للنقد والتقدير لا نحلت وبطل أمرها من قريب . فكان فى تركه وترك أمثاله ، ومقارعتهم بالحجج البينة ما يدفع هذه الشبهة عن الإسلام ، ويثبت بدليل محسوس أنه تأسس على الحقائق الثابتة ، وقام على قاعدة النظر والتمحيص ، وقد انتشر انتشارا لم يعهد له مثيل فى تاريخ العقلية الإنسانية لهذا السبب نفسه (*) .

★ ★ ★

(١) سورة المنافقون ، الآيات (١ – ١١) .

(*) مجلة الأزهر ، المجلد الحادى عشر ، الجزء العاشر ، شوال سنة ١٣٥٩ هـ .

المعركة الفاصلة بين المسلمين والمشركين
وقعة الأحزاب

إن الحالة القبيلية التى كان عليها العرب لم تكن لتسمح لهم أن يجمعوا على أمر يقومون به مجتمعين ، وإن كان له أكبر تعلق بهم كافة . ولم يكونوا من الناحية الدينية أيضا على شىء مما يدفع غيرهم إلى التكافل للذود عن عقائدهم الموروثة ، فلم يكترثوا لظهور دين جديد يعيب عليهم وثنيتهم ، ويحقر آلهتهم ، ويتوعدهم بالهلاك وسوء المنقلب . هذه الحالة تكشف عن مبلغ التفكك الذى كانوا عليه ، وعن خمود العاطفة الدينية فيهم . فإذا كانت قريش قد تحركت لمكافحة المسلمين فى دار هجرتهم مرتين قبل هذه ، فإن ذلك منها كان يرجع إلى عوامل اقتصادية ، لإزالة العقبة التى أقامها المسلمون فى طريقهم إلى الشام . ولولا ذلك لما حدَّث أحد فى قريش نفسه لغزو المسلمين فى يثرب .

ولكن اليهود الذين نزلوا بين أظهرهم مهاجرين منذ أجيال ، وتعلموا لغتهم ، وتسموا بمثل أسمائهم ، كانوا على غرار إخوانهم فى جميع بقاع الأرض ، يعرفون الوحدة الاجتماعية ، والجامعة الدينية ، ويدركون ما يبتنى على انتشار دين بَيِّن المقاصد والغاية فى البلاد العربية ، من الوحدة الاجتماعية والسياسية ؛ وهم مع كفرهم بهذا الدين كانوا يرون فيه خطرا على وجودهم هنالك ، وكانوا يظنون أن المسيحيين إذا كانوا على ما أُمروا به من الرحمة والعطف ، يبالغون فى اضطهادهم ، فلا يعقل أن يجىء أهل دين يكونون أرق قلبا منهم ؛ لذلك هالهم أن يستتب الأمر للإسلام فى دار هجرته الجديدة ، فلا يلبث أن تصبح له دولة وصولة ، فيجدوا أنفسهم مضطرين للهجرة ، وإلى أين هذه المرة ، وليس فى المعمور من يرحب بقادم عليهم من أهل ملة غير ملتهم ؟ حملهم هذا كله أن ينتدب جماعة من عِلْيتهم ، منهم سَلاَم بن مِشْكَم وابن أبى الْحُقَيْق وحُيَىّ بن أَخْطب ، خرجوا من خيبر وقدموا على قريش فى السنة الخامسة من الهجرة ، وأخذوا يحسّنون لهم أن يؤلبوا العرب على حرب محمد وجماعته ، حتى يستأصلوهم أو يفرقوا وحدتهم ، ويبطلوا دعوتهم ، خشية أن تصبح لهم دولة فلا يكون لهم ولا لغيرهم محيص عن الخضوع له ، والدخول فى دينه ،

وهو ما قد لا يرضاه منهم . وما زال هذا الوفد يحسنون لقريش هذا الأمر ويُسوّلونه لهم حتى زعموا أن ما عليه المشركون من الدين خير من الإسلام الذى يدعو إليه محمد . وكبير من أمة موحدة أن تداهن أمة وثنية إلى هذا الحد الشائن ؛ وقد سجل الكتاب الكريم هذا الخزى عليهم بقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ ، وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً . أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ ، وَمَنْ يَلْعَنِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴾ (١) . فسر المشركون من هذه الشهادة وقبلوا دعوتهم ، لا لأنهم يأبهون بالدين ، ولكن ليتخلصوا من عدو منع عليهم التقلب فى البلاد ، وتلمس الرزق منها .

ثم جاء هذا الوفد بنى غطفان وكلموهم فى غزو المسلمين ، وما كان ليهمهم هم أيضا أمر الدين ، ولكنهم رشوهم بمحصول تمر خيبر سنة ، فقبلوا دعوتهم .

فخرجت قريش وغطفان ومعهما حلفاؤهما ، فكانت عدة الأولين أربعة آلاف معهم ثلاثمائة فرس وألف وخمسمائة بعير ، ولاقتهم بنو سليم وعددهم سبعمائة ، تحت قيادة سفيان بن عبد شمس ، وتبعهم بنو أسد تحت قيادة طليحة بن خويلد . وخرجت غطفان تحت قيادة عُيَيْنة بن حصن ، وبنو مرة تحت إمرة الحارث بن عوف ، وبنو أشجع تحت زعامة مِسْعَر بن رُخَيْلة ، وخرج من يتصل بهم من القبائل حتى بلغ عددهم عشرة آلاف ، وقبل هؤلاء المتحالفون أن يكونوا جميعا تحت قيادة أبى سفيان بن حرب سيد قريش وقائدها المحنك .

لما بلغ النبى ﷺ خبر خروج هذا الجيش ، ندب أصحابه للجهاد ، فكان عددهم ثلاثة آلاف ومعهم ست وثلاثون فرسا .

وبينما هم ينتظرون قدوم المشركين أشار سَلْمان الفارسى رضى الله عنه النبى ﷺ ، أن يتقى المغيرين عليه بخندق على عادة قومه . فقبل النبى هذه المشورة وأمر بعمله ، وساهم بنفسه فى حفره ، ورفع التراب على عاتقه . وامتنع أكثر المنافقين عن العمل . وكان سلمان يعمل عمل بضعة أشخاص ، مدفوعا بشدة إيمانه . فتنافس

---

(١) سورة النساء ، الآيتان (٥١ – ٥٢) .

فيه الصحابة ، فقال الأنصار : سلمان منا ، وقال المهاجرون : بل هو منا . فقال النبى ﷺ : « سلمان منا آل البيت » .

ولما أقبلت القبائل المتحالفة ذهب حيى بن أخطب اليهودى إلى سعد بن أسد القرظى سيد بنى قريظة من اليهود المحالفين للمسلمين ، وما زال به حتى أغراه على نقض عهده والانضمام إلى القبائل المتحالفة ، ولكنه ما عتم أن رجع عما قاله و لم ينضم إلى المغيرين .

وخرج المسلمون من المدينة فى ثلاثة آلاف تحت قيادة النبى ﷺ ، فجعلوا ظهورهم إلى جبل سَلْع وعسكروا إزاء المشركين وبينهم الخندق . وعظم البلاء على المسلمين ، وجاهر المنافقون بما تكنه صدورهم ؛ وقد حكى الله ذلك عنهم فقال : ﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً ﴾ (١) ، وقالوا : « يَأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا » وقالوا : « إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ (أى غير حصينة) » (٢) ، واستأذنوا فى الرجوع ليحموها . وقال مُعَتِّب بن قُشَير ، وكان منهم : كان محمد يرى أن نأكل من كنوز كسرى وقيصر وأحدنا لا يأمن أن يذهب إلى الغائط .

عند ذاك رأى النبى ﷺ أن يحاول فَضْم جماعتهم بما يؤثر على أنفسهم من متاع الدنيا ، فبعث إلى عيينة بن حصن الفزارى قائد بنى غطفان ، وإلى الحرث ابن عوف المرى قائد بنى مرة ، أن يرجعا عن قتاله ولهما ثلث ثمار المدينة . ولكنه أراد قبل أن يبت فى الأمر أن يستشير زعيميها الكبيرين : سعد بن معاذ وسعد بن عبادة ، فطلبهما ، ولما حضرا استشارهما فى ذلك . فقالا يا رسول الله هذا أمر تحبه فتصنعه ، أم شىء أمرك الله به ، أم شىء تصنعه لنا ؟ فإن كان أمرا من السماء فامض له ، وإن كان أمرا لم تؤمر به ولك فيه هوى ، فسمعا وطاعة ، وإن كان هو الرأى ، فما لهم عندنا إلا السيف ، فقال رسول الله : لو أمرنى الله ما شاورتكما ،

---

(١) سورة الأحزاب ، الآية (١٢) .

(٢) سورة الأحزاب ، الآية (١٣) ، وتمامها :

﴿ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ .

والله ما أصنع ذلك إلا لأنى رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة ، وكالبوكم من كل جانب ، فأردت أن أكسر شوكتهم إلى أمر ما ، وأبطل ما عزموا عليه .

لمّا قدم جيش القبائل المتحالفة ، نزلت قريش بمجتمع السّيول بين مكانين حيال المدينة يسمَّيان بالجرْف والغابة ، هم ومن تبعهم من بنى كنانة وأهل تِهامة ، ونزلت غطفان ومن تبعها من أهل نجد إلى جنب جبل أحد .

أما جنود المسلمين فجعلوا ظهورهم إلى جبل سلع ، كما قدمنا ، والخندق بينهم وبين القوم .

ولما تصافّ الفريقان للقتال ، أقبل نوفل بن عبد الله بن المغيرة على فرس له ينظر من أى ناحية يقتحم الخندق ، فهوى فيه واندقت عنقه ، فعظم ذلك على المشركين وطلبوا إلى رسول الله أن يسلمهم جثته ليدفنوه ويدفعون إليه عشرة آلاف درهم ، فسلمه إليهم ليدفنوه ولم يقبل الدية .

وقف المشركون دون الخندق حائرين لا يدرون ماذا يعملون لاقتحامه ، وكان كبار قادتهم يتناوبون عليه ، فكان أبو سفيان يغدو إليه يوما ، وخالد بن الوليد يوما ، وعمرو بن العاص يوما ، ولم يكونوا قد أسلموا بعد ، ويغدو غيرهم كذلك ، يجيلون خيلهم يفترقون مرة ويجتمعون أخرى ، يناوشون المسلمين ويناضلونهم بالنبل .

وبينما الجيشان على تلك الحال ، والمسلمون فى قلتهم مستسلمون لقبول ما قُدِّر عليهم ، مع ترابطهم ترابطا لا تفصم له عروة ، إذ هبت ريح صفراء عصفت بالمعسكرين معا ، واشتد البرد والظلام ، حتى اضطر أكثر المسلمين إلى اللجأ إلى دورهم خشية الهلاك ، ولم يبق مع النبى ﷺ فى ميدان القتال غير ثلاثمائة ، ولم يقتصر أمر هذه الريح على ما أثارته من الرمال ، وما أحدثته من برد قارس ، ولكنها ما لبثت أن اشتد هبوبها حتى قلعت الأوتاد ، وأطفأت النيران ، وألقت الخيام وأكفأت القدور ، وسفت التراب ، وأثارت الحصباء ، فرأى المشركون أن المقام على هذه الحالة متعذر ، وخاصة بعد أن أقاموا إزاء الخندق أسبوعين ، وقيل أربعة وعشرين يوما ، وقيل شهرا ، لم يجدوا وسيلة لاقتحامه ، فقرروا العدول عن هذه الغارة ، وأول من أعلن ذلك قائدهم أبو سفيان إذ قال :

« يا معشر قريش والله إنكم لستم بدار مقام ، وقد هلك الكُرَاع والخفّ ، وأخلفتنا بنو قريظة (وكانت امتنعت عن الانضمام إليهم) ، ولقينا من هذه الريح ما ترون ، فارتحلوا فإني مرتحل » . وأخذ بزمام بعيره يقوده ويقول للناس : ارحلوا ارحلوا ! فجعلوا يرحلون حتى لم يبق منهم أحد ، ونجى الله المؤمنين من غائلة المشركين ، وكانت هذه الغارة خاتمة محاولاتهم الشريرة التى رموا بها إلى إطفاء نور الله فأبى الله إلا أن يتم نوره .

وقد ذكر الله هذه الغارة فى سورة الأحزاب من كتابه الكريم ، وذكر فيها من أحوال المنافقين ودسائسهم ما فيه معتبر . قال الله تعالى :

﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ ، فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ، وَكَانَ اللهُ بِمَاتَعْمَلُونَ بَصِيراً . إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ ، وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ ، وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ، وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا . هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً . وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً . وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ، وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ، وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ، إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً . وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّن أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَأَتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيراً . وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ ، وَكَانَ عَهْدُ اللهِ مَسْئُولًا . قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ ، وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا . قُلْ مَن ذَا الَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ اللهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ، وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا . قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا . أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَآءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِى يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ، فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ ، أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ ، أُوْلَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللهُ أَعْمَالَهُمْ ، وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا . يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا ، وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ ، وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا . لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا . وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ ، وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ ، وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا

إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا . (أى أنهم لما رأوا الأحزاب مقبلين يتوقدون حماسة ، قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله من نزول الشدائد امتحانا لإيمان عباده ، وقد صدق الله ورسوله فى أن العاقبة للصابرين ، وما زادهم هول ما رأوا إلا إيمانا وتسليما) . مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ ، فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ ، وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ، وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا . لِّيَجْزِيَ اللهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ ، أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ، إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا . وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ، وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ، وَكَانَ اللهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ [1] .

رأينا فى هذه الغارة الفاشلة :

الذى تبيناه من النظر فى عوامل هذه الغارة وأدوارها عدة أمور :

(أولها) أن قريشاً وسائر العرب كانوا بسبب ما هم عليه من القصور الاجتماعى والدينى قليلى الاكتراث لما يحدث بعيداً عنهم من التطورات لطائفة أخرى ، حتى ما كان منه عائدا بالضرر على معاشهم . وهذا الضعف فى الشعور نتج من حالة التفكك التى كانوا عليها ؛ والمجتمع كالفرد إن لم يتم تألفه ، ويكمل تشكله ، لا تظهر فيه خصائص الاجتماع ولا حوافظه ، ولولا أن رجالا من اليهود انتدبوا لإهاجة قريش وبعض القبائل المحالفة لهم على الغارة على المسلمين ، لما فعلوا . ولما كانوا قد دُفعوا إليها دفعاً بإغراء غيرهم ، فإن ما حدث من ثورة الريح فى تلك المنطقة كان كافيا فى إرجاعهم عن قصدهم . نعم إن العواصف التى ثارت فى سنة (١٥٨٨) على أسطول فيليب الثانى ملك أسبانيا ، أمام شواطىء انجلترة ، كفت هذه المملكة شره ، وكان أقوى أسطول فى العالم ، وقد دُعى (أرمادا) ومعناها الذى لا يقهر ، ولكن كان لخيبته سبب مادى وهو أن تلك العواصف حطمت أكثره على صخور الجزر البريطانية فلم يعد يصلح لعمل ، فعاد ما سلم منه على أسوأ حال . ولكن الريح الباردة التى ثارت على الجيوش المتحالفة لم تحدث من الخسائر المادية ما يقتضى أن يرجعها أدراجها ، وقد دل الكتاب الكريم على ذلك بقوله تعالى :

---

(١) سورة الأحزاب ، الآيات (٩ – ٢٥) .

﴿ وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا ﴾ وهذه الجنود هى العوامل الروحانية التى نفثت الرعب فى قلوبهم ، وسولت لهم النكوص على أعقابهم ، فلو كانت تلك الريح تكفى وحدها فى خَذْلهم لما عززها الله بهذه العوامل .

والذى يدل على أن العرب كانوا فى قصور بعيد المدى من الناحيتين الاجتماعية والدينية ، أن بنى غطفان قبلوا أن يأخذوا ثلث تمر المدينة ثمنا لخيانة حلفائهم ، مستهينين بالغرض الكبير الذى دعا إلى تآلفهم ، وليس هذا بعجيب فى حياة القبائل .

(ثانيها) أن إيثار الأنصار للدفاع عن حوزتهم بالسيف ، حين استشارهم رسول الله فى بث روح التخاذل بين المشركين ، بالتنازل لبعضهم عن ثلث تمر المدينة ، يكشف عن مبلغ استخفافهم بقوة أعدائهم ، واستهانتهم بخطر جموعهم التى حشدوها لقتالهم ، وهذا لا يكون إلا لتشبع نفوسهم باليقين فى التغلب عليهم ، وثقتهم بسعة العقل الذى يتولى قيادتهم .

(ثالثها) أن عدم تخاذلهم حيال هذه الجموع الزاخرة التى خفت لقتالهم ، وقلة اكتراثهم لإجماع قبائل العرب واليهود على استنكار ما هم عليه ، يبين عن إيمانهم الراسخ بأن ما هم عليه هو الحق ، وأن ما عليه خصومهم هو الباطل ؛ وهو أمر يلفت نظر البيكولوجيين ويحيرهم . فإن الخمس السنين التى قضوها فى الإسلام ، وهم من شعب معروف بضعف العاطفة الدينية ، وبعدم التعصب لأى مذهب من المذاهب الفلسفية ، يعتبر من الانقلابات الأدبية التى لم يعهد ما يشبهها فى تاريخ النفسية الإنسانية . فإن هذه المدة القصيرة لا تكفى لأن تحمل نفوس جماعة قليلة العدد للاستماتة فى الدفاع عن عقيدة ، والاستشهاد فى سبيلها ؛ لا سيما وهذه الغارة ظهرت فيها الحمية الجاهلية كاشرة عن أنيابها ، معتزمة أن تخوض غمرة حرب ماحقة لا رحمة فيها ولا هوادة . فالوقوف حيال هذا التوثب الجنونى لا يشعر بالشجاعة البالغة أقصى حدودها فحسب ، ولكن يشعر بنزعة من التضحية لا توجد إلا فى أدوار الانتقالات الذريعة فى تاريخ الاجتماع البشرى . فكل متأمل فى موقفى هاتين الطائفتين وفى الروحين اللتين تقودهما إلى التناحر ، كان يحكم لأول وهلة أن هذه الطائفة القليلة تضحى بنفسها فى سبيل عقيدتها ، فإن قدر لها النصر بورك لها فى وجودها ، وثبتت عقيدتها ، وآلت إليها الدولة فى نهاية الأمر .

(رابعها) أن ثبات جماعة المسلمين إزاء هذه الكارثة الفادحة ، وهم من بيئات مختلفة ، ومتأثرون بأحقاد قديمة لا تزال صورها حية فى نفوسهم ، يدل على مبلغ قوة الرباط الاجتماعى الذى كان يجمعهم . فأهل يثرب كانوا من الأوس والخزرج وهما قبيلتان كانتا فى حالة تناحر منذ عشرات من السنين ، وفى حالة نزاع مع القبائل اليهودية التى كانت قريبة منهم ، ومعهم بضع عشرات من أهل مكة آمنوا بالنبى ﷺ ، وهاجروا معه فرارا بدينهم وحياتهم ، ولم يتوقع أهل يثرب ولا أحد ممن كانوا معهم أن يصبحوا فى يوم من الأيام هدفا لمجموعة من القبائل يُرى ببداهة العقل أنهم لا يقوون عليها ، أفلا يكون ثباتهم على ترابطهم حيال هذه النازلة دالا دلالة لا تقبل النقض على قوة الرابطة التى كانت تجمع بينهم ، قوة لا توجد وسيلة فى الأرض تستطيع أن تحلها أو أن تضعف من استحكامها ؛ وأية وسيلة أفعل من هذه الوسيلة وهى أن تتألب أقوى القبائل العربية عليها ، يقودها قواد مشهورون بسعة الحيل فى إدارة المعارك ، وفرسان معروفون بشدة البأس فى مجالدة الأبطال ، والصبر على الأهوال ؟

(خامسها) أن اليهود الذين تخيروا البلاد العربية دار هجرتهم ، كان لهم يد قوية فى حمل المشركين على التألب على المسلمين حرصا على طمأنينتهم ، وسلامة وجودهم ، ولو كانوا أبعد نظرا لساعدوا المسلمين على التغلب على الجاهليين ، لأن الإسلام بما جاء به من سعة الصدر ، وحماية الضعفاء ، والوفاء بالعهد ، كان أجدى عليهم من سلطان أهل الشرك . وقد تبين ذلك فيما عاملهم به من العدل والكرم بعد أن دالت له الدولة ، فبدل أن يحفظ عليهم ما قاموا به من التأليب عليه فى عهد تكوُّنه ، وصى بالإحسان إليهم والبر بهم وبسائر أهل الكتب السماوية ، فكان وجوده رحمة لهم .

وإننا ننبه إلى هذا هنا تبريرا لما قام به النبى ﷺ بعد هذه الوقعة من إجلاء من بقى منهم عن حصونهم ، دفعا للغوائل التى تتطرق إلى جماعة المسلمين من ناحيتهم ، وهذا حق مشروع لكل جماعة تود أن تنال نصيبها من الوجود ، ما دامت لا تضمر لجماعة سخيمة نفسية ، ولا تصدر فيما تعمله عن العصبية الجاهلية .

(سادسها) لما أشار سلمان الفارسى رضى الله عنه على رسول الله ﷺ

بحفر الخندق ، لم يتردد فى الأخذ برأيه ، فأمر بحفره وساعد فيه بنفسه ، فضرب أكمل الأمثال للتعاون الفعلى بين القيادة العليا والجيش ، وهو عمل خطير لم يسبق إليه ، وخطورته تبدو من ناحية أدبية أخرى وهو عدم التورع من الأخذ بما ثبت نفعه ولو نقلا عن المشركين . وهو من ناحية ثالثة يسوغ التجديد بل يحتمه ما دامت حاجة الجماعة تستدعيه . وقد سار أصحاب النبى ﷺ وجميع من جاءوا بعدهم على هذا السمت ، فنقلوا كل ما رأوه من الأمور النافعة فى الجماعات التى احتكوا بها ، ولم يدعوا العلوم والفلسفة حتى ما كان منهما مهجورا فى بطون الكتب الاجنبية ، فكلفوا بها يهودا ونصارى ومجوسا من عرفة اللغات قاموا بترجمتها وإذاعتها ، فكان ذلك سببا فى تخويل المسلمين زعامة العلم والمدنيّة فى الأرض قرونا طويلة ، وفى الإكبار والإعجاب الذى يحيط به المؤرخون العالميون تاريخهم الحافل بعظائم الأمور (*) .

* * *

(*) مجلة الأزهر ، المجلد الثانى عشر ، الجزء الأول ، المحرم سنة ١٣٦٠ هـ .

غـزَواتٌ وسَرَايَا

فيما بقى من السنة الخامسة وفى السنة السادسة للهجرة

لما آب النبى ﷺ من غزوة الأحزاب ، وهمَّ أن يخلع لبوس الحرب ، أوحى إليه أن يقاتل بنى قريظة ، وهم من اليهود المجاورين للمدينة ، تأديبا لهم على خيانتهم العهد ، وعلى ممالأتهم للمشركين عندما قدموا لمقاتلة المسلمين . فما وسع النبى ﷺ وقد أمر أن يغزوهم على الفور إلا أن قال لأصحابه : لا يصلين أحدكم العصر إلا فى بنى قريظة . فصدعوا بالأمر وخرجوا طالبين ديار بنى قريظة ، وتبعهم رسول الله ، وكانت عدتهم ثلاثة آلاف مقاتل لواؤهم بيد على بن أبى طالب .

فلما وصلوا إلى أرض بنى قريظة بادر هؤلاء فاعتصموا بحصونهم ، فحاصرهم المسلمون خمسا وعشرين ليلة ، فرأوا أن لا مناص من التسليم ، فطلبوا إلى النبى ﷺ أن ينزلوا على ما نزل عليه بنو النضير من ترك السلاح والجلاء بالأموال ، فلم يقبل منهم ذلك فطلبوا أن يجلوا بأنفسهم تاركين سلاحهم وأموالهم ، فأبى طالباً إليهم أن ينزلوا على حكمه . فرجوه أن يرسل إليهم بأحد رجاله أبى لبابة ، وكان حليفا لهم فى الجاهلية ، ليستشيروه . فأرسله إليهم . فلما استشاروه قال لهم : انزلوا ، وأشار إلى حلقه ، يريد أن الحكم الذبح .

قال أبو لبابة هذا محدّثاً عن نفسه : « لم أبارح موقفى بعد إفضائى لهم بما قلت حتى أدركت أنى خنت الله ورسوله » . وما كان منه إلا أن رجع من فوره إلى المدينة ولم يقابل النبى خجلا منه ، وربط نفسه فى سارية من سوارى المسجد ، آخذا على نفسه أن لا يزال موثقا فيها حتى يقضى الله فيه بأمره . وسأل عنه النبى فأخبر بما كان منه فقال : أما لو جاءنى لاستغفرت له ، أما وقد فعل ما فعل فنتركه حتى يقضى الله فيه .

لم يسع بنى قريظة إلا النزول على حكم رسول الله ، فأمر بتكتيف الرجال . فجاءه رجال من بنى الأوس حلفائهم فى الجاهلية ، وسألوه أن يعاملهم كما عامل إخوانهم بنى قينقاع . فقال لهم : ألا يرضيكم أن نحكّم فيهم واحداً منكم ؟ فقالوا نعم ، واختاروا زعيمهم سعد بن معاذ . وأمر النبى بإحضاره ، وكان جريحا ، فحمل

على حمار وعُنى به جماعة من قومه كانوا طول الطريق يرجونه أن يترفق بهم .

فلما قدم على النبى ﷺ قال له : احكم فيهم يا سعد . فقال : أحكم أن يُقتل رجالهم وتُسبى نساؤهم وذراريهم . فنُفّذ هذا الحكم فيهم . ولم يبق بعد هؤلاء مجاور للمسلمين من اليهود غير بقية من كبارهم بخيبر .

أما أبو لبابة الذى أوثق نفسه فى سارية المسجد ، فما زال على تلك الحال حتى نزل فيه قوله تعالى : ﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١) ، فحل وثاقه واستراح قلبه .

(**سرية القُرْطاء**) : طائفة من بنى بكر كانوا ينزلون بناحية ضَرِيَّة وهى على بعد سبع ليال من المدينة فى طريق البصرة . أمر النبى ﷺ محمد بن مسلمة أن يغير عليهم فى ثلاثين مقاتلا . ففعل وقتل منهم عشرة وقيل عشرين ، واستاق ما كان معهم من الماشية وهى مائة وخمسون بعيرا وثلاثة آلاف شاة .

واتّفق ورجال هذه السرية عائدون ، أن صادفوا ثُمَامَة بن أُثَال من رجالات بنى حنيفة فأسروه ، وهم لا يعرفون من هو ، وقدموا به على النبى ﷺ . فقال لأصحابه : أتدرون من أخذتم ؟ هذا ثمامة بن أثال الحنفى ، وأمر به فرُبط إلى سارية من سوارى المسجد لينظر حسن صلاة المسلمين واجتماعهم . ثم أقبل عليه بعد الصلاة وقال له : ماذا عندك يا ثمامة ؟ قال : خير يا محمد ، إن تَقْتُل تقتلْ ذا دَمٍ ، وإن تُنعم تنعمْ على شاكرٍ ، وإن كنت تريد مالاً فسَلْ تعطَ منه ما شئت . فتركه حتى كان الغد . ثم قال له : ما عندك يا ثمامة ؟ فأعاد عليه ما قاله أمس ، فتركه حتى بعد الغد ، ثم عاد إليه فسأله كما فعل أولا وثانيا . فقال ثمامة : عندى ما قلت لك . فأمر النبى ﷺ بإطلاق سراحه . فخرج إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل ، ثم عاد إلى المسجد معلنا إسلامه ، فبشره النبى بخيرى الدينا والآخرة . فشخص إلى مكة ليعتمر . فلما سمعه المشركون ينفى الشريك لله ، قال له قائل : صبأت عن

---

(١) سورة التوبة ، الآية (١٠٢) .

دينك ؟ فقال : لا ولكنى أسلمت لله رب العالمين مع محمد رسوله ؛ ولا والله لا تأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها النبى ﷺ . وكان أهل مكة فى حاجة إلى استيراد حنطتهم من اليمامة بلد ثمامة ، فخشوا إن هم قتلوه أن يقاطعهم أهل بلده فتصيبهم مجاعة . ورأوا أن يكتبوا إلى رسول الله أن يأذن لثمامة فى عدم حبس حنطة اليمامة عنهم . فكتب إليه النبى أن يخلى بينهم وبين حاجتهم منها . وهذا من الصفات العالية التى تؤثر عنه ﷺ ، فإن قبوله إمداد أعدائه بما يقوتهم مع تمكنه من إجاعتهم وتضييق الخناق عليهم ، يدل دلالة صريحة على أنه يرى أن للنضال آدابا تجب مراعاتها ، وأن للإنسانية حقوقا فوق جميع الاعتبارات ينبغى الوفاء بها . وسلاح إجاعة الأعداء لتضييق المنادح عليهم مشروعة ، ولكن والحرب قائمة ، أما والسلام ضارب أطنابه ، فلا تصح مهما كانت درجة التوتر فى العلاقات بين الفريقين .

غزوة بنى لحيان :

بنو لِحْيان قبيلٌ من العرب كانوا قد قتلوا عاصم بن ثابت ورجالاً معه من أصحاب النبى ﷺ ، فلما كان ربيع الأول من السنة السادسة للهجرة سنحت فرصة للاقتصاص منهم ، فأمر بعض أصحابه بالاستعداد للحرب ، وخرج فى مائتين منهم قاصدا بنى لحيان . فلما بلغهم الخبر تفرقوا فى الجبال . فأقام النبى بديارهم يومين يبعث السرايا فلا يعثرون بأحد منهم ، فرجع إلى المدينة .

غزوة الغابة :

كان لرسول الله ﷺ عشرون لَقحة ترعى بالغابة [1] فأغار عليها مغير يدعى عيينة بن حصن فى أربعين راكباً واقتادها . فأبلغ هذا الخبر إلى النبى سلمة بن الأكوع ، وكان عَدَّاء ومن مَهَرة الرماة . فأمره أن يتصل بالقوم ويشغلهم بالنبل حتى يلحق بهم . فأدركهم سلمة فى الطريق فأخذ يشغلهم بالنبل . فكانوا يركضون خيولهم ليقبضوا عليه فيفوتها ، فإذا كفوا عنه عاد لرميهم ، حتى اضطرهم لإلقاء كثير مما كان معهم من الرماح والأبراد ليخففوا أثقالهم ، فيسهل إفلاتهم من جنود

---

(١) اللقحة : الناقة الحلوب الغزيرة اللبن . والغابة : موضع قريب من المدينة .

المسلمين .

فى هذه الأثناء ندب النبى ﷺ بعض أصحابه للخروج معه ، فدفع لواءه للمقداد بن الأسود وأمره بالخروج ولحق به الفرسان ، فأدركوا مؤخرة العدو ، فحدثت مناوشة قتل فيها مسلم ومشركان ، واستنقذ المسلمون أكثر اللقاح ، وهرب أوائل القوم بالبقية .

فطلب سلمة بن الأكوع إلى النبى أن يرسله فى جماعة ليدرك الهاربين ويأخذهم على غرة وهم نازلون على أحد مياههم . فقال له ﷺ : « قد ملكتَ فأسْجِح » أى قد غلبت فأحسن العفو . ثم رجع بعد خمس ليال .

إحدى عشرة سرية :

(أولاها) – أن بنى أسد كانوا يؤذون من يمر بهم من المسلمين ، فأرسل إليهم النبى ﷺ عُكَّاشة بن مِحْصَن فى أربعين راكبا ليقاتلهم . فلما بلغهم الخبر هربوا ، فاستاق المسلمون ما وجدوه من نَعَم العدو وكانت مائة بعير ، وعادوا بها إلى المدينة .

و(ثانيتها) – أن النبى ﷺ علم أن المقيمين بذِى القَصَّة [١] يريدون الإغارة على ماشية المسلمين التى ترعى بالهيفاء [٢] فبعث إليهم محمد بن مسلمة فى عشرة من المقاتلة . فلما وصلوا كان الليل قد أرخى سدوله ، وكان المشركون قد علموا بخبرهم وكمنوا لهم . فلما ناموا أخذ الأعداء يرمونهم بالنبل ، فتواثبوا إلى أسلحتهم ولكن بعد ما فات الوقت ، فقتلوا كلهم إلا قائدهم . فأرسل النبى إليهم أبا عبيدة عامر بن الجراح ليعاقبهم على ما فعلوا . فلما بلغ ديارهم وجدهم قد هربوا ، فاستاق أنعامهم ورجع .

و(ثالثتها) – أن بنى سليم كانوا يعاكسون الذين تحزبوا مع المسلمين فى

---

(١) ذو القصة : موضع على بعد ٢٤ ميلا من المدينة .

(٢) والهيفاء : موضع آخر قرب المدينة .

غزوة الخندق عندما كانوا يمرون بديارهم . فأرسل النبى ﷺ زيد بن حارثة ليقاتلهم . فلما بلغ أرضهم وجدهم قد فروا . فأخذ المسلمون ما عثروا عليه من أنعامهم وشائهم ، ووجدوا رجالا فأسروهم وعادوا إلى المدينة .

و(رابعتها) – أن رسول الله ﷺ نمى إليه أن قافلة تجارية أقبلت من الشام تريد مكة ، فندب لاعتراضها زيد بن حارثة فى مائة وسبعين رجلا ، فاستولى عليها وأسر رجالها ، وكان فيهم أبو العاص بن الربيع وهو من رجالات قريش ، زوج زينب بنت النبى ﷺ ، وكانت قد هاجرت إلى المدينة وتركت زوجها هذا مشركا ، فاستجار بها بعد أسره ، فأجارته وأعلنت ذلك . فقال رسول الله : « المسلمون يد واحدة يجير عليهم أدناهم ، وقد أجرنا من أجرتِ » . ورد على زوجها حرّيته وماله . فرجع إلى مكة ثم عاد إلى المدينة مسلما ، فرد عليه رسول الله زوجته زينب .

وقول النبى ﷺ : « يجير عليهم أدناهم » تقرير لمبدأ المساواة لم يكن معروفا لا عند عرب الجاهلية ، ولا عند اليونانيين ولا الرومانيين ممن بلغوا فى القدم درجات عالية فى المدنيّة . فقد كان لا يجير عندهم إلا كبار الرجال ذوو الجاه والمكانة المالية ؛ أما أدنى القوم فقد كان لا يأبه بهم أحد ، بل كان أهل الطبقة الدنيا فى المدنية الرومانية يدخلون فى حماية السراة ، حتى لا يكونوا عرضة للعدوان وإلا بطش بهم الأقوياء .

و(خامستها) – أن رسول الله بلغه أن بنى ثعلبة ، الذين قتلوا أصحاب محمد بن مسلمة كما أوردناه فى تاريخ السرية الثانية هنا ، يقيمون على بعد نحو ستة وثلاثين ميلا من المدينة ، فوجه إليهم زيد بن حارثة فى خمسة عشر مقاتلا للثأر منهم ، فهربوا من وجه السرية ، فاستولى المسلمون على أنعامهم وشائهم ورجعوا إلى المدينة .

و(سادستها) – أن النبى ﷺ أرسل زيد بن حارثة ليشن على بنى فزارة غارة عقابا لهم على ما تعرضوا لزيد المذكور وهو آيب من الشام بتجارة وانتهبوا ما معه . فقصد القوم فى وادى القرى وهو موضع شمال المدينة . فأحاط بالقوم برجاله وقتل منهم رجالا كثيرين .

و(سابعتها) – أن النبى ﷺ أرسل عبد الرحمن بن عوف فى سبعمائة من المقاتلة ، لدعوة بنى كلب إلى الإسلام ، وكانوا فى دُومة الجندل ، وهى قرى فيها

حصن على بعد خمس عشرة ليلة من المدينة ، وتقع على بعد خمس ليال من دمشق . وقبل أن يسير الجيش أوصاهم قائلا : « اغزوا جميعا فى سبيل الله ، فقاتلوا من كفر بالله ولا تغلُّوا [1] ، ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا ، فهذا عهد الله وسيرة نبيه فيكم » .

فلما حلوا بديار القوم دعوهم إلى الإسلام ثلاثة أيام ، وفى الرابع أسلم رئيس القوم الأصبغ بن عمرو وكان على النصرانية ، وأسلم معه كثيرون من قومه ، ورضى الباقون أن يدفعوا الجزية باعتبار أنهم من أهل الكتاب .

و(ثامنتها) – أن رسول الله أرسل على بن أبى طالب فى مائة مقاتل لمحاربة بنى سعد بن بكر بفَدَك [2] لأنه اتصل به أنهم على وشك الاتفاق مع يهود خيبر لمقاتلة المسلمين . فاتفق لهم أن عثروا بالطريق على جاسوس لهم ، فأمنوه على نفسه فى مقابل دلالتهم على موضع القوم ، فدلهم عليه ، فأغار المسلمون على ماشية القوم واستاقوها إلى المدينة ، وكانت خمسمائة بعير وألفى شاة .

و(تاسعتها) – أنه لما أرسل النبى ﷺ عبد الله بن عَتِيك وأربعة رجال معه لقتل أبى رافع سلَام بن أبى الحُقَيْق زعيم يهود خيبر ، وكان لغناه ومكانه من قومه كثير التأليب على المسلمين ، ونجح ابن عتيك فى قتله بعد أن دخل فى حصنه بحيلة توصل بها إليه ، وولى اليهود أمرهم أُسَيْر بن رزام ، وجَّه رسول الله من يأتيه بخبر القوم ، فعلم أن هذا الزعيم الجديد ليهود خيبر يعمل على الاتفاق مع بنى غطفان للثأر من المسلمين . فبعث النبى إليه بعبد الله بن رواحة فى ثلاثين من رجاله ليستميلوه إلى المسالمة .

فلما قدم هذا الوفد خيبر عرضوا على أُسَيْر بن رزام أن يقدَم معهم إلى المدينة ويترك ما عزم عليه من الخصومة ، فيعترف به النبى ﷺ رئيسا لخيبر ، ويزول ما بين الطرفين من الجفاء . فقبل أسير بن رزام هذا العرض وخرج فى ثلاثين من

---

(١) غل كذا أخذه خفية ودسه فى متاعه .

(٢) قرية بينها وبين المدينة ست ليال .

رجاله ، فجعل كل واحد منهم رديفا لواحد من المسلمين ، وجعل نفسه رديفا لعبد الله بن رواحة ، فبينا هو بالطريق ندم على خروجه وأهوى بيده إلى سيف مردفه ليستله ، فجذبه منه وأسرع فى النزول وضربه على فخذه فقطعها ، وتولى كل مسلم رديفه فقتله .

و(عاشرتها) – أن النبى ﷺ كان قد قدم عليه جماعة من بنى عُكْل وعُرَيْنة فتظاهروا بالدخول فى الإسلام وكانوا مصابين بأعراض سوء التغذى من رقة حالهم ، فتعطف عليهم النبى ﷺ فأمر راعيا له أن يعطيهم حاجتهم من ألبان بعض إبله ، وأشار عليهم أن ينتقلوا إلى مرعى تلك الإبل حتى تعود إليهم صحتهم ، فصدعوا بالأمر ؛ ولما آنسوا فى أنفسهم القوة بعد شفائهم قتلوا الراعى ومثلوا به وأخذوا الإبل وفروا . فأمر رسول الله كُرْز بن جابر الفهرى أن يأخذ عشرين فارسا ويلحق بهم ويقتادهم . فلما جيء بهم إليه أمر أن يمثَّل بهم كما مثلوا بالراعى ، فقطعت أيديهم وأرجلهم ، وسمرت أعينهم ، وألقوا خارج المدينة حتى ماتوا .

أما ما ورد من النهى عن التمثيل بالأعداء فقد حدث بعد هذه الحادثة .

و(حادية عاشرتها) – أن النبى ﷺ أرسل عمرو بن أمية الضمرى وكان رجلا فاتكا فى الجاهلية ، وأصحبه بمعين له ، ليقتلا أبا سفيان بن حرب غِيلَة ، جزاء له على إرساله رجلا ليقتل النبى غيلة .

فلما شخص عمرو بن أمية إلى مكة توجه ورفيقه ليطوفا بالبيت ، فعرف رجل من المشركين عمرا وأذاع الخبر ، فرأى عمرو أن ينجو بنفسه قبل أن يقبض عليه ، فرجع هو وشريكه إلى المدينة وبقى أبو سفيان حيا حتى أسلم عندما شرع رسول الله يفتح مكة .

أما خبر الرجل الذى كان أرسله لاغتيال النبى ﷺ ، فإن أبا سفيان قال يوما وهو بنادى قومه : ألا رجل يذهب لمحمد فيقتله غيلة لنستريح منه ؟ فنهض إليه رجل وتعهد له بذلك . فأعطاه راحلة ونفقة . فلما وصل إلى المدينة كان النبى بمسجد بنى عبد الأشهل فذهب إلى ذلك المسجد ، ولما وقعت عينه على رسول الله قصده متظاهرا بالطاعة وانحنى عليه ، فخشى أسيد بن حضير أن يكون قد أسر

شرا فجذبه من إزاره ، فسقط الخنجر الذى أعده له ، فافتضح أمره ، وسأله النبى عن الحامل له على سوء نيته ، فصَدَقه وأسلم من ساعته .

* * *

نظرة على ما سبق :

إننا لم نعمل فى كل ما مر فى هذا الفصل إلا سرد الحوادث التى وقعت فى السنتين الخامسة والسادسة للهجرة ، وكنا نستطيع أن نقف عند الحد الذى انتهينا إليه لنستأنف بقية السيرة المحمدية فى الأعداد التالية ؛ ولكنا شعرنا أن القارئ سيشعر بشىء من الحيرة عندما يقرأ ما عومل به المستسلمون من بنى قريظة من الشدة ، وما حُكم به على الجماعة من عكل وعرينة من التمثيل ، جزاء قتلهم رجلا واحدا وتمثيلهم به ، وما كان يُرسَل من أهل الجرأة والفتك لقتل بعض رؤساء الخصوم غيلة ؛ فلهذا رأينا أن التعقيب على هذه الحوادث واجب .

جاء الإسلام لينشر إصلاحا يشمل الأديان والأصول والمبادئ التى كانت تقود الجماعات الإنسانية وأخرجت عن حدودها ؛ ولبثّ أصول ومبادئ أدبية جديدة لابد منها لتكميل أدوات التطور الاجتماعى ، تكميلا لا تحتاج بعده لأدوات أخرى ؛ واقتضى هذا الإصلاح أن تقام له دولة تمثله وتدافع عنه . لأنه ثبت أن كل إصلاح دينى أو اجتماعى لا تتقمص روحُه دولة ، تنافح العوامل المحللة دونه ، يضمحل ويزول كأن لم يكن . والدليل المحسوس على هذا أنه لم يوجد ولا يوجد دين أو نظام مدنى قام بدون دولة . وهذه الديانة النصرانية ظلت فكرة مضطهدة مدة ثلاثة قرون متوالية حتى قامت لها دولة ، سُفكت فى سبيلها دماء ، وهُدمت هياكل وبِيَع ، فقويت واشتدت ونشرت رواقها على أوروبا برمتها ، وعلى بقاع كثيرة من القارات الأخرى .

فكان لابد للإسلام من أن يقيم لنفسه دولة ؛ والدولة عمل إنسانى يقتضى ككل عمل إنسانى أن يناسب البيئة التى يعمل فيها ، والنفوس التى يحتك بها ، ويحطم العقبات التى تقوم دونه .

وهذا العمل الإنسانى فى البيئات التى تصل بعد إلى أرفع درجات السمو الأدبى

لا يجدى فيه القيام على المُثُل العيا إلا بعد أن يصل إلى غايته القصوى ؛ أما وهو لا يزال فى دور التكوين فلابد للقائم به من أن يتنزل إلى استخدام الأساليب التى لا تتأثر النفوس الراهنة إلا بها . وإذا كان من النفوس من تكفيها الإشارة ، ومنها من لا يؤثر فيها إلا السواط يلهب ظهور أصحابها ، فمن الجماعات ما تجزئ فى زجرها المثل العليا من العدالة ، ومنها ما تفسدها هذه المثل العليا نفسها ، ولا ينفع معها إلا معاملتها بمثل ما تعمل لتُقتاد إلى ما يصلحها .

إذا أنصف خصوم الإسلام وجب عليهم أن يعجبوا كيف لم تشع هذه المعاملة الشديدة فى الدور الأول من تأسيس الدولة الإسلامية ، وتكون هى الأسلوب العملى لتقويم أمة جاهلية من الطراز المتحجر ، لا أن تقتصر على حادثتين أو ثلاثة فيه ، فإن معالجة الجماعات التى فسدت نفوسها بالعيش آلافا من السنين على حالة البداوة ، وقست قلوبها حتى صارت كالصخور أو أشد قسوة ، تضطر أرق المصلحين لها أن يعمدوا كارهين إلى وسائل توائم ما هى عليه من التحجر المستعصى ، وخاصة إذا كان المراد نقلها عما هى عليه ، خلافا لسنن التطور ، فى سنين معدودة .

ليس يدرك صحة ما نقول إلا من ابتلى بإصلاح رجل واحد ممن نذكر ، ورأى كيف تعجز جميع وسائل التقويم المعروفة فى علاجه ، وكيف يُلقى المنطق سلاحه ، وتتحطم نصال الأدلة الماضية دون إصراره وعناده .

على أن حادثتين أو ثلاثا مما لاحظه الخصوم واقتضتها أحوال خاصة ، لا تكدر صفو تاريخ حافل بآيات ، أصغر واحدة منها تنحنى أمامها الرءوس إجلالا ، وتفيض منها القلوب إيمانا ، وتزداد بها العقول عرفانا (*) .

* * *

(*) مجلة الأزهر ، المجلد الثانى عشر ، الجزء الثالث ، ربيع الأول سنة ١٣٦٠ هـ .

الجهاد الأدبى يبز الجهاد الحربى
صلح الحُدَيْبِيَة
وما أحدثه من هدم الوثنية

فى السنة السادسة من الهجرة أخبر النبى ﷺ أصحابه بأنه يريد العمرة ؛ والعمرة هى الطواف بالبيت فى غير وقت الحج ؛ وطلب إلى الأعراب المحيطين بالمدينة أن يخرجوا معه ، ولكنهم تلكّأوا ثم قالوا له : قد شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا . وكان السبب الصحيح فى تثاقلهم أنهم ظنوا أن المشركين يفتكون بالمسلمين ؛ وقد أشار إلى ذلك الكتاب الكريم فى قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ [1] شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا ، يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ، قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً ، بَلْ كَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا . بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَداً ، وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ ، وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُوراً ﴾ [2] ، أى هالكين .

فتركهم النبى ﷺ وخرج فى ألف وأربعمائة من أصحابه ليس عليهم من السلاح شىء غير السيوف ، وساروا حتى وصلوا عسفان ، فجاءه الخبر بأن قريشا أحست بمجيئهم وأجمعت على صدهم ، واستعدت للحرب تحت قيادة خالد بن الوليد (ولم يكن أسلم) . فاتبع المسلمون طريقا غير الطريق المعروفة ، فلم يشعر القرشيون إلا والمسلمون بجوارهم فى مستوى سهل يملك مكة من أسفلها . وأمر النبى أصحابه بالنزول فى أقصى مكان اسمه الحديبية فيه بئر تحمل هذا الاسم . وهناك أقبل سفير لقريش يدعى بُدَيل بن ورقاء يسأل عن سبب قدوم المسلمين . فأخبره النبى بأنه جاء معتمرا .

ثم أرسلو حُلَيس بن علقمة سيد الأحابيش ، وهم أعراب لا أحباش كما يتوهم

---

(١) الأعراب : سكان البادية من العرب . والعرب : اسم جنس ، ويطلق على المتحضرين .

(٢) سورة الفتح ، الآيتان (١١ – ١٢) .

بعضهم ، فلما قدم على المسلمين وجدهم يلبون ، فِعْلَ من يريد العمرة لا الحرب ، فعاد إلى قريش وأخبرهم بأن القوم جاءوا معتمرين ، ولامهم على منعهم .

فقالوا له أنت أعرابى وليس لك علم بالمكائد ، وأرسلوا عروة بن مسعود الثقفى سيد أهل الطائف ، فأقبل على رسول الله وكلّمه قائلا : يا محمد قد جمعت أوباش الناس وجئت إلى عشيرتك لتفضها بهم ، إن قريشا قد عاهدت الله أن لا تدخلها عليهم عنوة ، وأيم الله لكأنى بهؤلاء قد انكشفوا عنك . وكان عروة يتكلم وهو يمس لحية النبى ﷺ ، فكان المغيرة بن شعبة يقرع يده كلما أراد ذلك .

ثم رجع عروة وقد أدهشه ما يجده رسول الله من تبجيل أصحابه له ، فقال لقومه : يا معشر قريش والله لقد جئت كسرى وقيصر فما رأيت ملكا فى قومه مثل محمد فى أصحابه . فاقبلوا ما يعرضه عليكم فإنى أخاف أن لا تنصروا عليه .

فتأثرت قريش مما قاله عروة لهم ولكنها أصرت على المشارَّة . واتفق أن رسول الله رأى أن يرسل عثمان بن عفان فى عشرة من أصحابه سفيرا من قبله لإبلاغ قريش ما قصده من مجيئه . فبلغ عثمان رسالته إلى قريش . فقالوا له : إن محمدا لن يدخلها علينا عنوة ، وحبسوه هو وأصحابه عندهم . فشاع عند المسلمين أن عثمان قد قتل .

بيعة الرضوان :

لما ذاع خبر قتل عثمان دعا النبى ﷺ أصحابه لمبايعته على الموت فى قتال المشركين ، فبايعوه على ذلك تحت شجرة هناك سميت بعد ذلك بشجرة الرضوان ، ونسبت إليها تلك البيعة .

وكانت قريش ، وقد اعتزمت أن تلجأ إلى الشدة ، قد أرسلت خمسين رجلا تحت قيادة مِكْرَز بن حفص ليطوفوا بعسكر المسلمين عسى أن يصيبوا منهم غِرّة ؛ فشعر بهم الحرس فأسروهم وأفلت قائدهم . فلما بلغ ذلك قريشا أرسلت كتيبة لمناوشة المسلمين ، فأسر المسلمون منهم اثنى عشر رجلا ، وقتل من المسلمين واحد .

عند ذاك خشيت قريش مغبّة هذا المركب الخشن ، فلانت عريكتها ولجأت إلى الملاينة ، وأرسلت سفيرا من قبلها هو سهيل بن عمرو طالبة الصلح . فلما قابل

رسول الله ﷺ قال : يا محمد إن الذى حصل ليس من رأى عقلائنا ، بل هو شيء قام به السفهاء منا ، فابعث إلينا بمن أسرت . فقال له النبى : حتى ترسلوا الذين عندكم .

عند ذاك أرسلوا عثمان والعشرة الذين كانوا معه ، وقدم سهيل الشروط التى تطلبها قريش وهى أربعة :

(١) تقرير هدنة بين قريش وبين المسلمين أربع سنين .

(٢) إذا لجأ رجل من قريش إلى المسلمين فعليهم ردّه ، وإذا فر واحد من المسلمين إلى قريش فليس عليها رده .

(٣) أن يعود المسلمون هذا العام بغير عمرة ، ويأتوا فى العام الذى يليه فيدخلوا مكة بعد أن تخليها لهم قريش ثلاثة أيام ، ولا يكون معهم من السلاح إلا السيوف والأقواس .

(٤) من أراد أن يدخل فى عهد محمد من غير قريش فله ما أراد ، ومن طلب أن يدخل فى عهد قريش فله ما أراد كذلك .

فقبل النبى ﷺ هذه الشروط دون تردد ، وداخل المسلمين منها أمر عظيم ، وأجمعوا على أن يكلموا النبى فيها . فكان مما قالوه له : يا رسول الله ، كيف نرد إلى المشركين من جاءنا منهم مسلما ، ولا يردون هم إلينا من فر إليهم مرتدا ؟

فقال لهم النبى : إن من ذهب منا إليهم فأبعده الله ، ومن جاءنا منهم فرددناه إليهم فسيجعل الله له مخرجا .

وبلغ من شدة وقع هذا الصلح على المسلمين أن عمر بن الخطاب نفسه قصد إلى أبى بكر وأظهر امتعاضه منه . فقال له الصدِّيق : إنه رسول الله وليس يعصى ربه ، وهو ناصره .

فلم يقتنع عمر بما قاله له صاحبه ، وذهب إلى رسول الله ، وقال له مثل ما قال لأبى بكر .

فقال له النبى ﷺ : أنا عبد الله ورسوله ، لن أخالف أمره ، ولن يضيعنى .

فاستدعى النبى أوس بن خولة وأمره أن يكتب الشروط . فاعترض سهيل وطلب أن يكون الكاتب على بن أبى طالب أو عثمان بن عفان .

فأمر النبى عليا أن يكتب ، وأملاه بسم الله الرحمن الرحيم .

فاعترض على ذلك سهيل وقال : إن قريشا لا تعرف إلا باسمك اللهم .

فضج المسلمون من هذا التشدد ، وأمر عليا أن يكتب باسمك اللهم .

ثم قال له اكتب : هذا ما صالح عليه محمد رسول الله .

فاعترض سهيل على ذلك ، وقال : لو كنا نعرف أنك رسول الله لم نقاتلك ولم نصدك عن البيت ، ولكن اكتب باسمك واسم أبيك .

فقال النبى لعلى : امح رسول الله يا على . فصعب عليه أن يمحوه ، فتناول النبى الكتاب ومحاه بيده ، وقال لعلى اكتب : هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو .

بعد كتابة هذه الشروط وتسلُّم كل من المعسكرين نسخة منها ، وأصبحت نافذة ، أقبل رجل من المسلمين يدعى أبا جندل بن سهيل لاجئا إلى المسلمين ، وكان القرشيون قد منعوه من الهجرة . فقال له النبى ﷺ : إننا قد عقدنا مع القوم صلحا وأعطيناهم وأعطونا عهدا فلا نغدر بهم . فاصبر واحتسب فإن الله جاعل لك وللمستضعفين مخرجا .

لما تم أمر التعاهد أمر رسول الله أصحابه أن يتحللوا من عمرتهم وذلك بأن يحلقوا رءوسهم ، وينحروا هديهم . فأصابهم من ذلك كرب عظيم حملهم على عدم المبادرة بالامتثال . فدخل النبى على زوجته أم سلمة ، وكان قد استصحبها معه ، وقال : هلك المسلمون ، أمرتهم فلم يمتثلوا .

فقالت له : يا رسول الله اعذرهم ، فقد حملتهم أمرا عظيما بهذا الصلح ، وكانوا يريدون أن يفتحوا مكة ، فهم لذلك مكروبون ؛ فابدأ يا رسول الله بما تأمرهم به ، فإذا رأوك فعلت اتبعوك . فاتبع النبى مشورتها ، فلما رآه المسلمون يتحلل من العمرة فعلوا مثل ما فعل ، وعادوا معه .

ما كاد المسلمون يستقرون فى مدينتهم حتى لحقت بهم أم كلثوم بنت عقبة أخت عثمان لأمه ، فطلبها المشركون . فقالت : يا رسول الله إنى امرأة ، وإن أرجعت إليهم فتنونى فى دينى ، فنزل على النبى فى ذلك حكم وهو قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ، اللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ ، فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ، لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ، وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا ، وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ، وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ ، وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ ، وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ، ذَلِكُمْ حُكْمُ اللهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ، وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (١) .

مؤدَّى هذا الحكم أن المرأة المؤمنة إذا جاءت مهاجرة استحلفت بأنها ما خرجت رغبة بأرض عن أرض ، ولا من بغض زوج ، ولا لالتماس دنيا ، ولا لرجل من المسلمين ، ولكن حبا لله ولرسوله ؛ فإن حلفت فلا ترد ويعطى زوجها المشرك ما أنفقه عليها . وكذلك يفعل مع الزوجة المشركة فترد إلى أهلها بعد أن يعطوا زوجها المسلم ما أنفقه عليها .

وحدث أن أبا بصير عتبة بن أسيد الثقفى فر إلى رسول الله فأرسلت قريش فى أثره رجلين يطلبان تسليمه إليهما . فأمره ﷺ بالرجوع معهما . فرجع مع صاحبيه . ولما قارب ذا الحليفة عدا على أحد حارسيه فقتله وهرب منه الآخر . ورجع إلى رسول الله ثانية قائلا له : قد وفيت ذمتك . فقال له : لا ، اذهب حيث شئت ولا تقم بالمدينة . فخرج إلى ناحية على طريق الشام تمر به تجارة قريش ، فأقام به ، واجتمع به نفر ممن كانوا مسلمين بمكة ونجوا ، ولحق به أيضا أبو جندل بن سهيل اللائذ الأول ، وأخذوا يقطعون الطريق على تجارة قريش ، فاضطر المشركون أن يرسلوا إلى رسول الله يرجونه إبطال هذا الشرط من المعاهدة ، فقبل منهم ، ومحا الله من تلك المعاهدة ما كان يجد منه المسلمون ألما ممضا .

---

(١) سورة الممتحنة ، الآية (١٠) .

التأثير العظيم الذى أحدثه صلح الحديبية :

روى الإمام أحمد وأبو داود والحاكم عن مجمّع بن حارثة الأوسى قال : شهدنا الحديبية فلما انصرفنا منها وجدنا رسول الله ﷺ واقفا عند كُرَاع الغَمِيم ، وهو موضع أمام عسفان ، وقد جمع الناس وقرأ عليهم : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً ﴾ ، الآيات . فقال رجل : يا رسول الله أوَ فتح هو ؟ قال : إى والذى نفسى بيده إنه لفتح .

قد يعجب القارئ لأول وهلة أن يصف الكتاب الكريم بالفتح المبين ما اعتبره جيش برمته ضعفا واستسلاما ، ما عدا واحدا هو أبو بكر .

وقد رأى المؤمنون بأعينهم ثمرة هذا الصلح ، وتبين أنه كان أجل أثرا وأعظم عائدة على جماعتهم من أى فتح تقدمه ، بل رأوا أنه كان يجب أن توجد هذه الهدنة لتمهد السبيل أمام الإسلام بفتح القلوب له من طريق الاقتناع العقلى ، لا من طريق السيف وحده . فإن كل فتح فى تاريخ البشرية اعتمد على القوة وحدها انهار عقب قيامه مباشرة ، ما دام لم يصحبه تأثير أدبى فى النفوس تتألف منه عقيدة تخالط العقول والقلوب ، وتصبح بذلك حاجة روحية للقائمين به .

فالحق سبحانه وتعالى ، الذى كتب للإسلام أن تكون له دولة تُحدث فى العالم من ضروب الانتقالات الأدبية والاجتماعية ما لم تحدثه الفتوحات الكبرى مجتمعة ، أراد أن يكثر عديد الذين يصبح لهم الإسلام عقيدة متغلغلة إلى أعمق ما تصل إليه عقيدة من ضمائرهم ، ليقوموا به كحاجة قلبية لهم ، إلى جانب ما هو عليه كحاجة اجتماعية لوجودهم . وكيف يتسنى هذا فى وسط المعارك الدامية ، والسخائم المستعرة ؟ فكان لابد من وجود هُدْنةٍ يُلقَى فيها السلاح جانبا مدة كافية ليتمكن العقلاء من الناحيتين من التقابل والتفاهم ، والأخذ والرد ، والإقناع والاقتناع ، حتى يكون فى الجماعة رجال كثيرون انضموا إليها منقادين لأصوات ضمائرهم ، لا مستسلمين لعامل المنفعة ، فلا يلبثون بعد ارتفاع اليد الماسكة عنهم أن يعودوا لما كانوا عليه من جاهلية وما ورثوه وألفوه من وثنية .

من أراد أن يعرف الفرق بين هاتين الحالتين بدليل محسوس ، أحلناه إلى حقيقة

تاريخية وهى : أنه على أثر قيام الجماعة الإسلامية على صورة دولة قبيل فتح مكة وبعدها ، دخلت القبائل العربية المنتشرة فى جزيرة العرب فى الإسلام ، وكان دخولها فيه للمحافظة على وجودها ، ولاتقاء قارعة تحل بها من جراء شذوذها ؛ فلما انتقل رسول الله إلى الرفيق الأعلى شقوا عصا الطاعة على مَن خلفه ، وعادوا إلى وثنيتهم ، ومنعوا الأتاوات التى كانت تتقاضاهم إياها الدولة ؛ فاضطر أبو بكر إلى مقاتلتهم وإعادتهم إلى الطاعة بالقوة . وكان هذا العمل مما يستحيل حدوثه لو كان السواد الأعظم من مقيمى تلك الدولة على شاكلة هذه القبائل التحقوا بالإسلام طلبا للمصلحة ، لا عن اقتناع راسخ بحقيقته .

ولكن الذى كان أن السواد الأعظم من أولئك الأصحاب والأنصار كانوا يعتقدون عقيدة راسخة بأنهم يمثلون دينا هو حاجة روحية لهم ، ويقومون بنظام اجتماعى وأدبى سينقذ الإنسانية من أدوائها القاتلة ، وأنه سيعلو ويمتد حتى يؤتى أهله بخلافة الله فى الأرض ، ويعيش الناس فى رعايته على أكمل ما تكون عليه الإنسانية من سعادة مادية ومعنوية . هذا العامل الأدبى دفعهم لأن يبذلوا أموالهم وأرواحهم فى سبيل الذياد عن حوضه ، والدفاع عن بيضته ، وإعادة المنشقين عنه إلى حظيرته .

فأنت ترى أن هذا العامل الأدبى الذى أدت إليه العقيدة الراسخة ما كان لينتشر فى ألوف من الناس لو اعتمد ناشروه على القوة وحدها . وكيف كانت تتهيأ البيئة لتبادل الآراء فيه ، وإقامة الأدلة عليه ، لولا عهد طويل من السلام يحدث فيه اختلاط بين رجال القبيلين يفضى كل منهم إلى خصمه بما هو عليه ؟

هذا من لباب العلوم الاجتماعية التى لم يفتح بها على الناس إلا فى القرون المتأخرة ؛ ناهيك أن الناس عز عليهم أن يفهموا ما سماه كتابهم فتحا مبينا ، فى الوقت الذى كانوا يعتقدون فيه أنه مظهر من مظاهر الاستخذاء والتسليم لعدوهم .

ولم يطل العهد على الذين أنكروا هذا الصلح ، فقد تجلت لهم حكمته فى أجلى مظاهرها بعد عقده بسنتين عند فتح مكة . فقد روى سعيد بن منصور بإسناد صحيح عن الشعبى فى قوله تعالى : ﴿ إنا فتحنا لك فتحا مبينا ﴾ أنه قال : « لم يكن فى الإسلام فتح قبله أعظم منه ، إنما كان القتال حيث التقى الناس ، فلما كانت

الهدنة ، ووضعت الحرب أوزارها ، وأمن الناس بعضهم بعضا ، والتقوا وتفاوضوا فى الحديث والمنازعة ، لم يُكَلم أحد ذو عقل فى تلك المدة فى الإسلام إلا دخل فيه . ولقد دخل فى تينك السنتين مثل من كان دخل فى الإسلام قبل ذلك أو أكثر ، ويدل عليه أنه ﷺ خرج إلى الحديبية فى ألف وأربعمائة ، ثم خرج بعد سنتين إلى فتح مكة فى عشرة آلاف » . اهـ .

لا جرم أن هذا من أعظم دلائل النبوة ، فإن إقدام النبى على عمل استنكره أصحابه كلهم ، والتشدد فى إمضائه إلى هذا الحد ، لم يكن من عادته ﷺ ؛ فقد أثر عنه أنه كان يستشير أصحابه ويعمل بمشورتهم فيما لم ينزل فيه وحى . وقد أخبرهم فى هذه المرة بأنه نزل فى هذا الصلح وحى ، ودعاه الكتاب الكريم بعد إتمامه فتحا مبينا ، خلافا لما كان يراه فيه الناس كلهم ، وقد ظهر أنه يستحق هذا الوصف بعد ظهوره بسنتين اثنتين .

لو كانت الأمور تجرى على عاداتها ، لكان هذا الصلح الذى اعتبره المسلمون مذلا لهم ، قد زاد المشركين غرورا بقوتهم ، وتمسكا بوثنيتهم ؛ أما وقد أنتج عكس ما كان ينتظر منه ، وصَدَّق الكتاب فى تسميته إياه فتحا مبينا ، فهذا مما لا يمكن تعليله إلا إذا اعتبر وحيا إلهيا ، لا تدبيرا بشريا .

إن أمثال هذه المعجزات هى التى يعتدّ بها العلم ، ويرى فيها مظهرا من مظاهر الاتصال بعالم أرفع من هذا العالم ، يُمَدّ منه الإنسان بما لا تعطيه الطبيعة المجردة من خطط العمل ، ولا سيما فيما يتعلق بالشؤون الاجتماعية التى لا يدركها إلا الذين حذقوا العلم بأحوال النفوس ، وطبائع البيئات ، وعوامل التطور ، وأين هم من هذا كله فى ذلك العهد من الظلام الدامس ، وفى تلك البقعة من قرارة البداوة المنحلة ؟ (*) .

(*) مجلة الأزهر ، المجلد الثانى عشر ، الجزء الخامس ، جمادى الأولى سنة ١٣٦٠ هـ .

الرسالة المحمّدية عامّة للبشر كافّة
إعلانها للدول رَسْميًّا

فى السنة السادسة من الهجرة ، وبعد صلح الحديبية ، رأى النبى ﷺ أن الوقت قد آن لإعلان العالم أجمع برسالته العامة ، فأرسل للملوك الذين كانوا يتوزعون الأمم فى زمانه سفراء يحملون كتبا منه إليهم ، يدعوهم فيها إلى الإسلام ، موقعا عليها بخاتم اتخذه منقوشا عليه (محمد رسول الله) . فوجه دِحْية الكلبىّ إلى أمبراطور الرومانيين بكتاب جاء فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد بن عبد الله إلى هرقل عظيم الروم . سلام على من اتبع الهدى . أما بعد ، فإنى أدعوك بدعاية الإسلام ، أسْلِم تَسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين [1] و« يأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » .

وبعث عبد الله بن حُذافة السهمى بكتاب إلى كسرى ملك الفرس جاء فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس . سلام من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله ، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله . أدعوك بدعاية الله ، فإنى أنا رسول الله إلى الناس كافة ، لأنذر من كان حيًّا ويحق القول على الكافرين . أسلم تسلم ، فإن أبيت فإنما عليك إثم المجوس » .

وأرسل حاطب بن أبى بَلْتعَة إلى المقوقس عظيم القبط بكتاب كان فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط .

---

(١) الأريسيين أى الفلاحين فى القرى . وجاء فى رواية (الأكارين) وهم الفلاحون أيضا جمع أكار .

سلام على من اتبع الهدى . أما بعد ، فإنى أدعوك بدعاية الإسلام . أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، وإن توليت فإنما عليك إثم القبط . و« يأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » .

وكلف عمرو بن أمية الضمرى أن يحمل إلى النجاشى ملك الحبشة كتابا جاء فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى النجاشى عظيم الحبشة سلم . أما بعد ، فإن أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة ، فحملت بعيسى من روحه ونفخه ، كما خلق آدم بيده . وإنى أدعوك إلى الله وحده لا شريك له ، والموالاة على طاعته ، وأن تتبعنى وتوقن بالذى جاءنى ، فإنى رسول الله . وإنى أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل . وقد بلغت ونصحت ، فاقبلوا نصيحتى ، والسلام على من اتبع الهدى » .

وكتب إلى ملك البحرين ، وإلى ملكى عمان ، وإلى هوذة بن على ملك اليمامة ، وإلى أقيال اليمن ، وإلى كل من كان يمكن أن يصل إليه كتاب من قادة الجماعات البشرية ، يدعوهم فيه إلى الإسلام ، وينذر من تخلف عن قبول دعوته منهم بسوء المصير .

تأثير هذه الكتب فيمن أرسلت إليهم :

لما وصل كتاب النبى ﷺ إلى قيصر ملك الرومان ، طلب أن يبحث له عن رجال من العرب ليسألهم عن رسول الله ، فاتفق أن كان أبو سفيان بن حرب بالشام فى تجارة مع جماعة من قريش ، فدعوهم لمقابلة الأمبراطور . فلما مثلوا بين يديه ، قال : أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذى يزعم أنه رسول ؟

فأجابه أبو سفيان : أنا . لأنه كان من بنى عبد مناف أحد أجداد النبى ، فقال له قيصر : ادْنُ منى . ثم سأله : كيف نسب الرجل فيكم ؟ فقال أبو سفيان : هو فينا ذو نسب .

فسأله : هل ادعى هذه الدعوى أحد قبله منكم ؟ فقال : لا . قال : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يدعى ما ادعى ؟ قال لا . قال : فهل كان من آبائه ملك ؟ قال : لا . قال : فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم . قال : بل ضعفاؤهم . قال : يزيدون أم ينقصون ؟ قال أبو سفيان : بل يزيدون . قال الأمبراطور : هل يرتد أحد منهم سَخْطةً لدينه ؟ قال : لا . قال قيصر : هل يغدر إذا عاهد ؟ قال أبو سفيان : لا ، ونحن الآن منه فى ذِمَّةٍ لا ندرى ما هو فاعلٌ فيها . قال : فهل قاتلتموه ؟ قال : نعم . قال : فكيف حربكم وحربه ؟ قال : هى بيننا سِجال مرّةً لنا ومرةً علينا . قال قيصر : فَبِمَ يأمركم ؟ قال أبو سفيان : يقول : اعبدوا الله وحده ، ولا تشركوا به شيئا ، وينهى عما كان يعبد آباؤنا ، ويأمر بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة .

وقد روى بعد هذا أن الأمبراطور استنتج من هذه الأجوبة أن محمدا رسول الله حقا . وقال : إن كان ما كلمتنى به صحيحا فسيملك موضع قدمىّ هاتين .

ثم روى أن قيصر لما كان بحمص جمع عظماء الروم وأمر أن تغلق أبوابها ، وقال لهم : يا معشر الروم هل لكم فى الفلاح والرشد ، وأن يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبى ؟ فحاصُوا حَيْصَةَ حُمُر الوحش إلى الأبواب فوجدوها مغلقة . فلما رأى قيصر نفورهم استدعاهم وطيب نفوسهم ، وزعم أنه قال لهم ما قال ليختبر ثباتهم فى دينهم .

أنا أشك فى صحّة هذه الرواية ، وإنما أثبتها هنا لإجماع كتاب السير على إيرادها ، وإنما شككت فيها لأنه مما لا يعقل أن يكون قيصر الرومان من سرعة التصديق بحيث يعتمد فى إيمانه على رواية رجال لا يعرف مبلغ صدقهم فيما يقولون ؛ ولم يسألهم عما يجب أن يسأل عنه ذو دين قائم عن الأسباب التى دعت لنسخه بدين جديد ؛ ولم يبحث فى قيمة هذه الأسباب .

فإذا لم تكن هذه الرواية مختلفة كلها ، فيمكن أن تحال إلى ما يمكن حدوثه عادة ؛ كأن يظن أن حب الاستطلاع حمل أمبراطور الروم أن يستحضر بعض من كان فى مملكته من تجار العرب ليسألهم عن رأيهم فى هذه الديانة الجديدة وفى سيرة

القائم بها . أما أنه يتحول إليها بهذه السرعة ويدعو إليها قومه ، وهم من أشد المسيحيين تمسكا بالمسيحية ، فمما لا يمكن قبوله بوجه من الوجوه .

وكان تأثير كتاب النبى ﷺ فى ملك الفرس أنه غضب منه غضباً شديدا حمله على تمزيقه والقذف به .

أما تأثيره فى المقوقس فكان الشك فى صحة الرسالة المحمدية . فإنه لما قرأ كتابه قال لحامله إليه حاطب بن أبى بلتعة : مامنع محمدا إن كان نبيا أن يدعو على من خالفه وأخرجه من بلده ؟

فقال له حاطب : فما منع عيسى حين قبضوا عليه أن يدعو عليهم ويهلكهم ؟

أجمع كتاب السيرة أن المقوقس أجاب النبى ﷺ بكتاب قال فيه : « سلام عليك ، أما بعد فقد قرأت كتابك ، وفهمت ما ذكرت فيه ، وما تدعو إليه ، وقد علمت أن نبيا قد بقى ، وكنت أظن أنه يخرج بالشام ، وقد أكرمت رسولك ، وبعثت لك بجاريتين لهما مكان عظيم فى القبط ، وبثياب ، وأهديت إليك بغلة تركبها ، والسلام » .

وأنا أسلم بأن المقوقس أهدى النبى ﷺ ما ذكر فى هذا الكتاب ، وهو أشبه بكرم أخلاق الأقباط ، ورقة طباعهم ، ولكنى لا أسلم بصحة ما ورد فى الكتاب المنسوب للمقوقس ، من أنه كان يعتقد ببقاء نبى آخر لم يبعث . فإن هذا لا يتفق وعقيدة النصارى ، فإنهم كانوا يعتبرون أن ديانتهم قد تمت بتجسد الابن وصلبه وافتدائه البشر بنفسه .

والذى وضع هذا الكتاب أراد إظهار المقوقس بمظهر الذى تأثر قلبه بالدعوة المحمدية ، فأخطأه اختيار الأسلوب ، وإلا فما معنى قوله : (بجاريتين لهما مكان عظيم فى القبط) ، فمتى كانت للأرقاء مكانات عظيمة فى نظر الأمم ؟

وإنى إنما أنبه على أمثال هذه المآخذ لشحذ الهمم على تطهير السيرة المحمدية من كل ما لا يتفق والذوق السليم وحكم العقل . فإذا كان بعض القدماء عمدوا إلى إهمال النقد فى بعض ما تناقلوه ، فلا يجوز للمعاصرين أن يتابعوهم فيه ، فقد

علموا أن الدلائل على سمو مكانة النبى ﷺ أصبحت تحت ضوء العلم وفلسفته من الكثرة بحيث يعد منها ولا تعد .

وأما تأثير كتاب ﷺ فى النجاشى ، فقد روى أنه لما وصل إليه الكتاب وضعه على عينيه ، ونزل عن سريره فجلس على الأرض ، ثم أسلم . ودعا بعد ذلك بحق من عاج فجعل فيه كتاب رسول الله وقال : لن تزال الحبشة بخير ما كان هذا الكتاب بين أظهرهم . ثم أمر أن يكتب له جوابه ، وهذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . إلى محمد رسول الله من النجاشى أصحمة . السلام عليك يا نبى الله من الله ورحمة الله وبركات الله الذى لا إله إلا هو الذى هدانى للإسلام . إلى أن قال : فأشهد أنك رسول صادق مصدّق . وقد بايعتك وبايعت ابن عمك ، وأسلمت على يده لله رب العالمين » .

نقول : لا يخالج قلبى شك فى أن هذا الكتاب مختلق على النجاشى ، لا لأنه أكبر من أن يخضع للدعوة المحمدية ، فقد خضع لها من الملوك من يفخر النجاشى أن يكون خاضعا لسلطانهم ، ولكن لظهور أثر الصنعة فى كل عبارة من عباراته ، بل كل كلمة من كلماته ، فأنّى للنجاشى وهو فى قاصية من مجاهل أفريقا ، وبين ظهرانى شعب أمّى ، يضن بعقائده الموروثة ضنّه بنفسه ، يكون من سرعة التصديق بحيث يستبدل بدينه دينا جديدا لمجرد دعوته إليه ، وينقلب متحمسا له إلى حد أن يستهتر فى حبه وحب الداعى إليه على نحو ما رأيت ؟

ليست الدعوة المحمدية فى حاجة إلى إظهار عظمتها بمثل هذه المفتريات الساذجة ، وقد سرت فى الجماعات والأفراد سريان الروح فى الأجساد ، وبسرعة حار فى تقديرها العقل ، حتى بلغ الذين قبلوها مائة مليون نسمة فى نحو قرن ، وامتد سلطانها على بقاع من الأرض فى ثمانين سنة ، لم يبلغ إلى مثلها ملك الرومان بعد جهاد ثمانية قرون متوالية .

الإسلام دين مُنزل للإنسانية كافة :

لم تصادف الكتب النبوية التى أرسلها النبى ﷺ للأمم والجماعات التى كان يمكن الاتصال بها على عهده ، نجاحا يذكر ، وما كان هذا النجاح مؤملا ، ولكنها

دلت على أمر جلل ، لم يدوَّن له شبيه فى تاريخ رسول من الرسل ؛ دلت على أن الإسلام دين عالمى وليس بدين قومى ، وهنا موطن الدهش من هذا الحادث العظيم الفذ فى تاريخ البشر .

رجل ينهض من بين قبيلة لا عهد لها بكتاب ولا حكمة ، ولا اجتماع جنسى منظم ، ولارباط أدبى محكم ، ينتدب لدعوة الأمم كافة إلى دين عام يجمعها حول أصل واحد ، وهو لا يزال فى وسط الطريق من دعوته لقومه الأقربين ، لا يدرى أيفوز عليهم أم يفوزون عليه ! هذا حادث عظيم لا يكفى فيه التعجب ، ولا يشفى منه الدهش ، ما دام يقدر بالموازين العادية ؛ ولا يوضع فى كفته أن محمدا إنما كان يعمل بوحى يصدر إليه ، ويترسم خطة توضع له ويكلف بالجرى عليها . بهذا الافتراض وحده تحل هذه العويصة حلا يقبله العقل ، ويثلج عليه الصدر ، وتنكشف به عوامل خفية تحل كثيرا من غوامض النبوة ، ومساتير الاتصالات العلوية .

محمد كان رجلا من قريش مثل سائر مواطنيه ، لا يعرف من أمر العالم أكثر مما يعرفه سواه ، وإنما امتاز عنهم بأنه كان يوحى إليه ، ويؤمر بما يجب أن يسير عليه ، وقد كلف أن يصارح الناس بهذه الحقيقة : ﴿ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِى خَزَائِنُ اللهِ ، وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ ، وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ، إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَىَّ ، قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ (١) .

فالذى أوعز إلى محمد أن يدعو الأمم كافة إلى ملته ، قبل أن يطمئن على نجاح دعوته فى البيئة المحدودة التى كان فيها ، هو الحق الذى كان يوحِى إليه القرآن ، وهو أعلم حيث يجعل رسالته . فالذى يهم الباحث المستقل أن يعرفه هو : هل فيما أنزل على محمد تصريح بأنه أرسل الناس كافة ، وهو ما لم يُصَرَّح به فى كتاب أنزل على المرسلين الذين جاءوا قبله ؟

إذا بحث هذا الباحث عن ذلك وجد قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً

---

(١) سورة الأنعام ، الآية (٥٠) .

لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [١] ، ووجد تصريحا خطيرا آخر بأنه خاتم النبيين .

هنا تثور فيه رغيبة ملحة أن يرى هل فى الدعوة نبأ عظيم يساوى أن يبلغ إلى الناس كافة ، وهل فى أصول هذا الدين ما يرشحه لأن يكون دينا عاما للعالمين ؟

إذا بحث فى هذه الناحية تبينت له أمور على أعظم جانب من جلالة القدر ، وهى :

(١) أن الإسلام ليس بدين جديد ولكنه الدين الأوّل الذى أنزله الله على جميع المرسلين ، وتناوله أتباعهم بالتحريف .

(٢) أن دين الإنسانية واحد ولا يجوز التفرق فيه .

(٣) أن الذى أوجب التفرق فى دين الإنسان هو البغى والتعصب لأغراض دنيوية ليست من الدين فى شىء .

(٤) وأن محمداً أُمِر أَمْراً صريحا بالدعوة لوحدة الدين على الأساس الذى توليناه بالتبيين .

(٥) وأن الدين العالمى الحق هو أن يؤمن الإنسان بجميع المرسلين من غير تفرقة بين أحد منهم ، وبكتب الله كافة ، فإن فى جميعها الحق والهدى والنور .

(٦) وأن من يؤمن ببعض المرسلين ويكفر بالبعض الآخر فلا يقبل منه دين . ومعنى هذا أن الإسلام يعتبر الدين وحدة لا تقبل التجزئة ، وهذه نظرية فى الدين تصل إلى درجة من السمو ليس فوقها مرتقى ، وهى ما سيئول إليها العالم حتما بعد أن يصل به الرقى إلى أفق رفيع .

(٧) وأن هذا الدين العام هو مآل البشرية جمعاء ، ولا معدى عنه مهما سعى فى طمس معالمه المضللون .

إليك الآيات الناطقة بالنصوص الصريحة الدالة على ما نقول :

---

(١) سورة سبأ ، الآية (٢٨) .

﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً ، وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ، وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى : أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فيه ، كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْه ، اللهُ يَجْتَبِى إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِى إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ . وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ، وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ . فَلِذَلِكَ فَادْعُ (أى لتوحيد الدين فادع) ، وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ، وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنْ كِتابٍ ، وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ ، اللهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ، لاَ حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ (أى لا محاجة ولا خصومة) ، اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ (١) .

﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا ، وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ ، وَمَا أُوتِىَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِىَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ ، لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ، فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا ، وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (٢) .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ﴾ (٣) .

﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ (وهو الدين الأقدم) وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللهِ فَإِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ (٤) .

﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ ، وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً ، وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ قُلْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا ، وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ ، وَمَا أُوتِىَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ

---

(١) سورة الشورى ، الآيات (١٣ - ١٥) .
(٢) سورة البقرة ، الآيتان (١٣٦ ، ١٣٧) .
(٣) سورة الأنعام ، من الآية (١٥٩) .
(٤) سورة آل عمران ، الآية (١٩) .

لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْن لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [١] .

الدين فى نظر الإسلام وحدة لا تتجزأ ، وهو دين الإنسانية بأسرها ، فمن لم يؤمن من به جملة فلا يقبل منه . قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونِ بِاللهِ وَرُسُلِهِ ، وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ ، وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ ، وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً ، أُوَلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ، وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً ﴾ [٢] .

هذه هى بعض الآيات التى أردنا إيرادها . وقد قلنا : هل فى الإسلام نبأ عظيم يساوى أن يبلغ إلى الأمم كافة ؟

يسوغ لنا الآن أن نقول بأعلى صوتنا : أجل ! وليس هذا فحسب ، بل ستبقى الحاجة داعية إلى تبليغ هذا النبأ العظيم للأمم شرقا وغربا ما بقى فى الناس قلب يعى وأذن تسمع [*] .

★ ★ ★

---

(١) سورة آل عمران ، الآيتان (٨٣ ، ٨٤) .

(٢) سورة النساء ، الآيتان (١٥٠ ، ١٥١) .

(*) مجلة الأزهر ، المجلد الثانى عشر ، الجزء السابع ، رجب سنة ١٣٦٠ هـ .